الباب الثانى

الاشكال الفنية التعبيرية

الفصل الأول : الشكل القصصى

الفصل الثانى : فن الحوار

الفصل الأول

الشكل القصصي

لقد جاءت الموضوعات والأفكار العظيمة للسورة فى أشكال أو أطر فنية رفيعة ، لا تقل فى فنيتها عما استحدث فى عصور الأدب الزاهرة ، وسنحاول بقدر ما يتاح لنا أن نبين ذلك ونوضحه .

وأوضح الأشكال الفنية فى السورة هو الشكل القصصى .

أولاً : القصة فى سورتى طه والأعراف :

يكاد الشكل القصصى أن يستغرق سورة طه ، إذ تبلغ قصتا موسى وآدم عليهما السلام أكثر من مائة آية ، فقصة موسى وحدها تبلغ اثنتين وتسعين آية ، وقصة آدم أو جانب منها تبلغ تسع آيات ، ولا يبقى إلا أربع وثلاثون آية خارجة عن إطار القصتين ، وهذا يجعل الشكل القصصى غالبًا على السورة .

وقصة موسى تشغل الجانب الأكبر منها إلى درجة أن يكون من أسماء السورة ما يتعلق بهذه القصة ، وقد رأينا أن الفيروزابادى يورد أنها تسمى بسورة موسى .

وقد وردت قصة موسى عليه السلام فى عدد غير قليل من سور القرآن وبصور مختلفة فى العرض والتناول والتوظيف ، فقد وردت القصة فى سورة الأعراف فى آيات عددها خمس وخمسون إلى جانب الآيات العشر التى وردت فى بنى إسرائيل بعد قصة موسى ، وفى سورة الشعراء جاءت فى ثمان وخمسين ، كما أن عددها أربعون فى سورة القصص ، واثنتان وعشرون فى الكهف ، وثلاث وعشرون فى غافر ، وسبع عشرة فى يوسف ، وست فى هود ، وسبع فى النمل ، وثلاث فى كل من إبراهيم والإسراء والمؤمنون ومريم ، وست عشرة فى الدخان ، وست فى المائدة ، واثنتان فى النساء ، وأكثر هذه الآيات قد نزلت بعد سورة طه ، ولم يسبقها فى النزول إلا آيات سورتى الأعراف ومريم ، حيث تشير رءوس السور إلى أن سورة طه نزلت بعد سورة مريم ، وقد ذكر موسى فى سورة مريم ذكرًا عامًا لا يشكل قصة ، فقد ذكر فى ثلاث آيات

فقط هى قوله تعالى : ﴿واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصًا وكان رسولاً نبيًا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيًا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا﴾[١] .

أما سورة الأعراف التى نزلت بمكة قبل سورتى مريم وطه فقد شغلت قصة موسى خمسًا وخمسين آية منها ، وقد جاء التركيز على أحداث ومواقف معينة فى سورة الأعراف ، كما أن سورة طه قد أبرزت أحداثًا ومواقف أخرى ، ونستطيع أن نتوقف عند عرض القصة فى السورتين ليتضح لنا ما أضافته سورة طه إلى القصة الموسوية .

١ – جاءت قصة موسى موجزة فى سورة الأعراف بالقياس إلى مجيئها فى سورة طه ، فلم يرد فى الأعراف رؤية النار ، وسماع النداء وخلع النعلين واختياره لحمل الرسالة ، وطلبه من الله أن يؤازره بأخيه هارون ، ثم تدريبه على آياته بعد تكليفه بالذهاب إلى فرعون . كما لم يرد بالأعراف أيضًا قصة السامرى وموقفه من بنى إسرائيل ، وموقف موسى منه .

٢ – وقد أبرزت سورة الأعراف جوانب من القصة لم تركز عليها سورة طه ، إما لورودها فى سورة الأعراف أو لعدم صلتها بالسياق ، ومن ذلك :

(أ) إظهار معجزتى موسى لفرعون قبل اجتماعه بالسحرة يوم الزينة ، وأن فرعون قد جمع له السحرة بعد أيتى العصا واليد ، كما تبرز سورة الأعراف أيضًا موقف السحرة من فرعون قبل مقابلتهم لموسى فى اليوم الموعود ، فهم يطلبون الأجر الحسن فى حالة نصرهم ، وفرعون يعدهم بذلك إلى جانب تقريبه لهم ، قال تعالى : ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾[٢] .

(ب) كما ورد فى سورة الأعراف موقف فرعون من بنى إسرائيل بعد هزيمة السحرة وإيمانهم برب موسى ، وتهديد فرعون لهم ، ولقد أنذر فرعون وقومه بنى إسرائيل وهددهم بالقتل والتعذيب واستباحة النساء مما أشعرهم باليأس ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يلوموا موسى الذى طلب منهم الصبر .

﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [٣] .

---

(١) سورة مريم آيات ٥١ – ٥٣ .
(٢) سورة الأعراف آيات ١١٣ – ١١٤ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٢٩ .

(جـ) كما ورد فى قصة موسى فى الأعراف ولم يرد فى طه ما أصاب آل فرعون من أذى كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وقد استغاثوا بموسى لدعاء ربه بكشف الضر ، وقد وعدوه بعد ذلك بالإيمان ، وبإرسال بنى إسرائيل معه ، لكن فرعون وقومه لم ينجزوا وعدهم ، قال تعالى : ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾[1] .

(د) كما أبرزت السورة جهالة بنى إسرائيل الذين أنعم الله عليهم وأنقذهم من بطش فرعون وجنوده ، لكن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم ، وقد حدث أن رأوا قومًا يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها مثل أولئك القوم ، وقد أغضب هذا المطلب موسى ، ووصفهم بالجهل ، لأنهم نسوا فضل الله عليهم ونعمه الجزيلة ، قال تعالى : ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾[2] .

(هـ) وقد وضحت الأعراف أيضًا زمن ميقات موسى مع ربه ، وكان قدره أربعين ليلة ، قال تعالى : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾[3] .

(و) ومما تضمنته قصة موسى فى سورة الأعراف ولم تورده سورة طه طلب موسى من ربه النظر إليه ورؤيته ، وقد حذره ربه من عدم قدرته على تحمل رؤيته ، لأن الجبال الرواسى لا تستقر عند تجلى الله لها ، ولذلك أمره ربه أن ينظر إلى ما يحدث للجبل الضخم الراسى ليتأمل ما سيحدث له عند تجليه له ، وقد جعله الله دكًا عند ذلك التجلى ، مما جعل موسى يسقط مصعقًا ، وقد تاب واستغفر ربه عندما أفاق لجرأته فى طلبه ، قال تعالى : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخرَّ موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف آيات ١٣٣ – ١٣٥ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٣٨ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٤٢ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

٣ – ونلحظ أيضًا على قصة موسى فى السورتين أن ورودها فى سورة طه يختلف عنه فى سورة الأعراف من حيث المقام والتوظيف ، ففى سورة طه نجد القصة جاءت كاملة من الآية التاسعة للتخفيف عن رسول الله ﷺ ، ولتؤكد له جهاد الرسل مع أقوامهم وأعداء الله وصبرهم على البلاء الذى يلاقونه ، وأن الله سبحانه يؤيد رسله بالنصر ولا يتركهم نهبًا لأعداء الله .

٤ – ولم تسبق قصة موسى فى سورة طه بقصة أخرى كما حدث فى سورة الأعراف ، فقد سبقتها قصص أهل القرى مع أنبيائهم من رسالة نوح عليه السلام حتى نبى الله شعيب ، فبعد ورود قصة نوح مع قومه وردت قصة هود عليه السلام مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وقصة لوط مع قومه ، ثم قصة شعيب مع أهل مدين . وقد جاءت قصة موسى فى الأعراف متممة للقصص الأخرى التى تؤكد جميعها جزاء تكذيب الرسل وفعل الفواحش والكفر ، ولم تعقب قصة موسى فى الأعراف قصة أخرى ، أما فى سورة طه فقد جاء جانب من قصة آدم بعدها ، أو نقول جاءت قصة آدم موجزة بعد قصة موسى لتتميم السياق ، لأن معرض القصتين فى السورة واحد ، فقصة آدم هنا تؤكد للرسول أن الله واسع الرحمة ، وأن ولد آدم سيكون منهم من يتبع هدى الله ، ومنهم من يغمض بصره عن آيات الله ولكل جزاؤه .

فقصة موسى فى سورة الأعراف جزء من كيان كبير عام تتضافر مع غيرها من قصص الأنبياء السابقين لتصوير طبائع الخلق فى نزوعهم إلى الشر وتكذيبهم للرسل واستحقاقهم للعقاب ، وهؤلاء الخلق سيكونون فى مراتب ثلاث : الجنة والنار والأعراف ، ولأصحاب كل مرتبة موقفها من أصحاب المرتبتين الأخريين .

وكل ذلك قد نزل على الرسول ﷺ لينذر به قومه وليوضح لهم درجة كل منهم حسب موقفه من قضية الإيمان .

أما قصة موسى فى سورة طه فهى كيان مستقل تام يؤدى وحده دورًا ووظيفة دون الاحتياج إلى غيره ليسانده ويقويه ، وقد استولت على معظم آيات السورة ، وقد ضمّت الأحداث الرئيسية ، وتوفرت بها الملامح الفنية التى لم تجمع كاملة فى غيرها .

ثانيًا : الملامح الفنية لقصة موسى فى سورة طه

نلحظ فى قصة موسى فى السورة أن بناءها يقوم على كثير من الأصول الفنية التى استقرت ووضحت فى عصرنا ، وسنحاول تتبع تلك الخصائص من غير تعسف فى

المعالجة ، ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم لا يقلل من قدره عدم توافر هذا الفن أو ذاك فيه ، لكن الحس الأدبى الجمالى والثقافة الواسعة تمكنان من الوقوف عند كثير من الجماليات الخفية ، ونحن مدعوون إلى النظر فى النصوص الأدبية الرفيعة مسلحين بالحس الأدبى والثقافة المتجددة ، والقرآن الكريم أصفى النصوص الأدبية وأرقاها وأعمقها ، فلا ضير فى نظرنا من استخدام المقاييس الفنية المعاصرة للأشكال الأدبية فى دباسة القرآن الكريم .

ومن أوضح الملامح التى لمسناها فى قصة موسى فى السورة :

١ – **طريقة العرض** : لقد بدأت القصة من نصفها الثانى ثم استرجعت أحداث النصف الأول مفرقة على التوالى بالسرد والتذكير .

وهذا ما نراه فى الفن القصصى المعاصر الذى يلجأ أحيانًا إلى بدء القصة من نهايتها أو نصفها الأخير أو من جزء منها ، ثم يتم استكمال الأحداث بطريقة الاسترجاع أو الرؤية الخلفية flash back ، ويلجأ الروائيون إلى ذلك لغرض التشويق وجذب الانتباه إلى حادث معين أو شخصية معينة .

وقد بدأت القصة الموسوية فى السورة من بداية رؤيته للنار : ﴿وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾[1] .

ورؤية النار فى ذاتها حادثة هامة لمن يتأملها ، وذات دلالة عميقة لموسى نفسه وللمؤمنين . وذلك أن رؤيتها كانت خصوصية لموسى دون غيره ، فزوجته لم تر تلك النار التى رآها كما لم يرها أحد من الرعاة واللصوص والعباد وعابرى السبيل ، وقد تأكد ذلك عندما ذهب موسى إلى مصدر النار ، فلم يجدها نارًا تتأجج ، ولا لهيبًا تتطاير ألسنته ، كما لم يكن لها أوار يعلو ، ولا دفء ينتشر ، وإنما وجد شجرة مضيئة بضوء خلاب .

ومن مؤكدات خصوصية الرؤية لموسى أنه لم يجد عندها إنسيًا ولا جنيًا ، فهو وحده الذى رآها وسعى إليها ووقف أمامها .

---

(١) سورة طه آيات ٩ – ١٣ .

لقد شعر موسى بتلك الخصوصية التى تأكدت بنداء ربه ، والنداء الإلهى كان عند الشجرة ، وقد تأكد موسى عند ذلك النداء أنه نبى ، فقد تضمن اختيار الله له ، وتبعه طلب الامتثال لسماع الوحى .. وتكليفه بالرسالة ، وهذا يعنى أن القصة بدأت بحادثة هامة تجذب الانتباه .

إن موسى لم ير النار ولم يستمع إلى وحى ربه إلا بعد أن قطع شوطًا غير قليل فى رحلة عمره ، وقد سبق ذلك زمن طفولته وشبابه ، وهى مراحل لم تبدأ بها القصة ، ونراها ملقى بها فى ثنايا الأحداث المسرودة ، فجاء ذكر طفولته بعد التكليف بالرسالة ، وطلب التوجه إلى فرعون الطاغى ، وتأييده بآيات كبرى ، واستجابة الله لدعائه المتضمن إطلاق لسانه وشرح صدره وتيسير أمره ، وجعل هارون مؤازرًا له ، وهذه نعم عظيمة منّ الله بها على موسى ، وكان السياق مناسبًا لعرض جانب من الأحداث الأولى فى حياته ، والمقام هو التذكير بنعم الله عليه ، ومن تلك النعم العظيمة إنقاذه من قتل فرعون له وهو طفل ، حيث ألهم الله أمه أن تضعه فى تابوت تقذفه فى اليم ، وبأمر الله قد ألقاه اليم بساحل قصر فرعون الذى يلتقطه ويرعاه ، وقد تمثلت نعمه سبحانه عليه عندما جمعه بأمه . وقد استكملت أجزاء أخرى من سيرته الأولى قبل التكليف فى مقام التذكير أيضًا بالنعم التى أسبغها عليه ، وقد جاء قتله للمصرى وفراره إلى أرض مدين ناجيًا فى عرض سريع مؤدٍ لمعناه المقصود ، كما جاء قضاؤه للأجل وزواجه من ابنة الرجل الصالح فى إشارة لامحة موحية .

ويفهم من السياق عند رؤيته للنار أنه عائد من مدين مع أهله وماله وولده . وهكذا يستكمل الجزء المتروك من حياة موسى بهذا السرد السريع الذى جاء فى صور التذكير بالنعم .

والتعريج إلى حياة موسى الأولى لا يدخل فى الاستطراد لأنه فى صميم البناء الفنى المتعلق بالحدث والشخوص .

كما أنه مسلك يؤدى إلى عنصر التشويق ، ثم تنمو الأحداث بالذهاب إلى فرعون وقومه .

ومما يتعلق بطريقة العرض ويعد من الملامح الفنية للقصة المعـ رة ما يعرف بالقطع والوصل .

٢ – **القطع والوصل (المونتاج)** : نلحظ أن قصة موسى فى السورة قد ظهر فيها فن القطع والوصل (المونتاج) الذى يزيد العمل القصصى قيمة فنية ، فالسرد المتتابع تاريخيًا أو منطقيًا مثلاً – يؤدى إلى التوقع والتعرف على نهاية الأحداث ، كما يورث

الرتابة التى يسعى الروائيون إلى التخلص منها بطرق فنية مختلفة ، ومن تلك الطرق القطع والوصل ، فنجد السرد القصصى لحدث معين يتوقف ويدخل فى حدث آخر ، أو فى تحليل لسلوك شخصى ، أو وصف لمكان أو ملبس أو غير ذلك ، ثم يخلق الروائى سياقًا مناسبًا للعودة إلى مواصلة بناء الحدث الأول الذى قطعه .

والروائى يصرف انتباه القارئ من حال إلى حال ، وهو يصنع ذلك لأغراض كثيرة أهمها جذب القارئ إلى مواصلة القراءة .

ونحن نلحظ هذا الفن بوضوح فى قصة موسى فى مواضع كثيرة منها :

(أ) بدأت القصة بسؤال رسول الله ﷺ عن معرفته بقصة موسى قال تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾[1] .

والله جل ثناؤه لا يسأل هنا لأنه لا يعلم ، فهو سبحانه منزه عن عدم المعرفة ، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قد عرف شيئًا أو طرفًا من ذلك الحديث فى سورة الأعراف التى سبق نزولها هذا السؤال .

وبناء على هذا تكون الإجابة على حسب السؤال ، والسؤال إما أن يكون استفهامًا حقيقيًا ، أو استفهامًا مجازيًا ، وفى الحالة الأولى تكون الإجابة : نعم أتانى طرف منه فى سورة الأعراف يا ربِّ ، فيكون هناك كلام مقدر هو :

خذ واعلم طرفًا أو أطرافًا أخرى من تلك القصة ، وهو ما لم تعرفه من قبل فى الأعراف ، فقد رأى نارًا خلال عودته من أرض مدين بعد الوفاء بالأجل ، وكانت معه زوجته وولده وماله ...

ولولا هذا التقدير لما كان هناك وجه بلاغى يكون الاستفهام به حقيقيًا ، لأن الله يعلم كل الحقائق . وكان من الضرورى أن يوجه الاستفهام إلى كونه غير حقيقى (مجازيا) لغرض التنبيه على أهمية ما سيرد من قول عن موسى عليه السلام .

ويتمثل القطع فى الآية التى تلت الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾[2] .

فكان من المتوقع بعد الاستفهام أن يتناول الحديث عن موسى المراحل السابقة على الاصطفاء والتكليف ، ولكن القطع قد تطلب ترك هذه المراحل ليرجع إليها فى سياق

---

(١) سورة طه آية ٩ .

(٢) سورة طه آية ١٠ .

آخر بعد ذلك ، فقد ترك ذكر ولادته فى أيام بطش فرعون ببنى إسرائيل وقتله لمن بولد منهم فى تلك السنة ، كما ترك إلهام الله لأمه عند ولادته بأن تضعه فى التابوت وتلقيه فى اليم ثم التقاط آل فرعون له ، وإرجاعه إلى أمه التى صارت مرضعة له ، وتربيته فى قصر فرعون ، وفترة شبابه ، وحادثة قتله للمصرى ، وهربه إلى أرض مدين وزواجه من ابنة الرجل الصالح الصغرى ، ثم عودته بعد قضاء الأجل المتفق عليه .

وهذه المراحل وردت بإيجاز فى مقام التذكير بنعم الله عليه بعد الاستجابة لكل ما سأل ، قال تعالى : ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى . ولقد منا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسًا فنجيناك من الغم وفتناك فتونًا ، فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسى﴾ (١) .

(ب) وتأتى الآيات التالية لتصل ما قطع ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾(٢) .

فلقد طلب الله من موسى فى الآية رقم ٢٤ أن يذهب إلى فرعون بعد أن سلحه بالآيات المعجزات ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ (٣) .

وهما آيتا العصا واليد ، وقد حدث قطع بعد هذه الآية بدعاء موسى لربه ، فأنعم الله عليه بالاستجابة ، فشرح صدره ويسر أمره وأطلق لسانه وجعل له أخاه هارون مساعدًا ، ثم ذكره بالنعم الأخرى التى أسبغها عليه .. ثم تجىء الآيات التالية كما أشرنا لتصل ما قطع وهى الآيات التى تكلفه بالذهاب إلى فرعون .

وهذا موضع آخر يبدو فيه هذا الفن واضحًا جليًّا مؤديًا لغرضه .

(جـ) ومن المواضع التى ظهر فيها هذا الملمح الفنى علاقة الآية ٤٩ بما قبلها ، فقد أمر الله رسوليه موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون لدعوته إلى الإيمان بالله ، وأمرهما

---

(١) سورة طه آيات ٣٦ – ٤١ .
(٢) سورة طه آيات ٤٢ – ٤٣ .
(٣) سورة طه آية ٢٤ .

أن يقولا له قولاً لينا ، ويخبرانه أنهما رسولا الله ، ثم نجد بعد أمر الله لهما بالذهاب والقول أن فرعون يسألهما عن ربهما ، وبين طلب الذهاب وسؤال فرعون أحداث كثيرة حذفت للعلم بها أو لأنها متصورة مفهومة ، والأحداث والأقوال المقدرة هى : أنهما أطاعا الله فيما أمر ، وقالا لفرعون قولا لينا لهدايته ، وأظهرا له معجزتى العصا واليد ، سألهما بعد ذلك عن ربهما الذى يدعوان إلى الإيمان به . كما يمكن تقدير الحوار الذى دار بين موسى وفرعون فى مساحات واسعة .

ومعنى هذا أنه حدث قطع بين الآية ٤٩ وما قبلها ، فقد حذفت أحداث وأقوال كثيرة لأنها متصورة مفهومة ، وفى عدم ذكرها بلاغة رفيعة ، ودلالة على أن المخاطبين أصحاب قدرة على التصور، ولذلك ترك ذكرها لإعمال الفكر وتنشيط الخيال .

(د) ونجد فى علاقة الآية ٧٠ بما قبلها مظهرا من هذا الملمح الفنى ، فنجد فى – تلك الآية سجود السحرة لرب موسى وإيمانهم ، ونجد فى الآيات التى سبقتها تجسيدا للمباراة التى دارت بين السحرة وموسى ، وبين الآية ٧٠ والآيات التى قبلها كلام كثير يمكن أن نقدره ، وهو ما يمكن أن يعبر عن تحول السحرة من التحدى الظاهر لموسى إلى التصديق به والإذعان لدعوته ، وهى أمور تستغرق زمنا غير قصير ، وتستوجب أقوالا وأفعالا كثيرة ، كالتفكر فى معجزة موسى ، ومراجعة موقفهم مع فرعون وجنوده ، وتقدير ما يمكن أن يسفر عنه أى تصرف منهم ، وإيمان السحرة لا يخص فردًا واحدًا ، بل هو متعلق بجماعة كبيرة ، ومن المتوقع أن يدور بين أفرادها حوار وجدل ومنازعات تسفر عن مواقف تمثلهم وتختص بهم ، فقوله تعالى على لسان السحرة : ﴿فألقى السحرة سجدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾ [1] .

لم يكن قرارا عفويا منهم ، بل هناك من الأحداث والأقوال التى هيأت له ، وهذا يعنى أن قطعا أو وحذفا قد وقع .

(هـ) ومن ذلك أيضًا ما بين الآية ٧٧ وما قبلها ، قال تعالى : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسًا لا تخاف درکًا ولا تخشى﴾[2] .

والآيات التى قبلها توضح إيمان السحرة ، وموقف التحدى من فرعون وعدم مبالاتهم لوعيده ، والتحدث عما ينتظرهم من النعيم يوم القيامة .

---

(١) سورة طه آية ٧٠ .

(٢) سورة طه آية ٧٧ .

ونجد بين الآية والآيات التى قبلها قطعا ، وإنما نستطيع أن نقدر ماورد فى سورة الأعراف عن موقف فرعون من بنى إسرائيل بعد هزيمة السحرة الذين اعتمد عليهم ، وقد اشتد غضب فرعون مما دعاه إلى تهديد بنى إسرائيل بالقتل والتسخير واستباحة النساء ، كما أن بنى إسرائيل أنفسهم قد يئسوا ، وضعف إيمانهم وتطيروا بموسى ، فأمره الله أن يخرج بقومه ليلاً من مصر ، وتبعهم فرعون وجنوده ، وكان جزاؤه ما كان . ونجد فى الآية ٧٧ وصلا لما سبق من أحداث متعلقة بموسى وقومه .

(و) ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى الآية ٨٣ ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ والآيات التى قبلها ، وهى تتحدث عن نعم الله سبحانه على بنى إسرائيل ، فهو سبحانه ، قد نجاهم من عدوهم ووعدهم بالتوراه التى سيظفرون بالعمل بها ، وأنزل عليهم المن والسلوى . قال تعالى : ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنَّ والسلوى . كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾[1] .

وبين هذه الآيات التالية قطع يمكن تقديره : فلقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعم عظيمة ولكنهم لا يذكرون وهم فى غفلة ، كما أنهم أصحاب إيمان ضعيف ، وقد ظهر ذلك عندما رأوا قوما عاكفين على أصنام لهم فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها يعبدونه كهؤلاء القوم ، فسخر منهم موسى واتهمهم بالجهل ، لذلك استخلف عليهم أخاه هارون وأوصاه برعايتهم حتى لا يضلوا ، وقد .أسرع موسى لميقات ربه لتلقى كلماته ، والتوراة التى ستهدى قومه ، وكان فى عجلته لميقات ربه فرصة للسامرى الذى أضل بنى إسرائيل ، ولذلك كان سؤال ربه عن سبب العجلة ، وهذا القطع يمكن تقديره كما أشرنا من خلال ماورد فى سورة الأعراف .

٣ – بناء الشخصيات : نلحظ فى قصة موسى فى سورة طه عدة شخصيات ، تتفاعل وتتشابك ، وتدفع جميعها الأحداث إلى النمو ، وتحملها إلى قمة الصراع بينها ، ومن المعلوم فى الفن القصصى وجود شخصيات تختلف بحسب ما تحمله من الحدث ومدى دفعها له ، لذلك نرى منها شخصيات ثانوية أو هامشية ، ومنها ما تكون أساسية ، وأكثر الشخصيات حملاً للحدث هى الشخصية المحورية أو البطل .

---

(١) سورة طه آيات ٨٠ – ٨٢ .

وفى القصة الموسوية فى سورة طه نجد موسى عليه السلام الشخصية المحورية التى تشارك فى صنع الأحداث ونموها ، وتتصارع مع الشخصيات الأخرى .

ونلحظ أن الشخصيات الأخرى قد طالعتنا مكتملة لم يطرأ عليها نمو يذكر ، بخلاف شخصية موسى التى ترد من المهد مرورا بالشباب والكهولة والشيخوخة .

وفرعون الطاغية لانراه فى القرآن كله إلا رجلاً مكتمل الرجولة قويًا جبارًا متكبرًا ، يقتل الأطفال ويسخر الرجال والنساء من بنى إسرائيل ، وله جنوده ووزراؤه ، وهو يجادل ، موسى وينكر ما جاء به ويجمع السحرة والجنود ، ولولا عون الله ما تمكن موسى من الإقدام على مخاطبته ، ودعوته . والجهر بإنذاره ، وفرعون فى قصة موسى لم تتغير شخصيته ، فلقد رأيناه مكابرًا معاندًا قويا من أول مشهد حتى غرقه .

وحال شخصية السامرى لا تختلف عن شخصية فرعون وقد بدت لنا مكتملة النمو ، فهو الرجل الموهوب الذى برع فى فن صناعة التماثيل ، كما وضح فى صنع تمثال أجوف لعجل من البقر ، وهو أيضًا صاحب معرفة بالعلوم التطبيقية المتعلقة بالمعادن وخواص الصوت الفيزيائى ، وهو ذو حظ وافر من المعرفة اللاهوتية المصرية القديمة التى أعادته إليها بعد إيمانه بموسى وربه ، ونحن لا نعلم شيئًا عن مراحل حياته السابقة ، سوى أنه كان جارا لموسى فى مصر ، كما تنقطع أخباره بوعيد موسى له .

وما قيل عن شخصيتى فرعون والسامرى يمكن أن يطلق على هارون ، فهى الآخرى تطالعنا شخصية مكتملة لم تمر بمراحل نمو ، كما لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، فهو أخو موسى الفصيح المبين عن حاجته بمقدرة وعقل وطلاقة ، وهو المساعد لرسول الله موسى ، وقد تركه راعيا على قومه بنى إسرائيل ، وهو يبدو مترددًا غير حازم ، وقد ظهر عدم الحزم فى موقفه من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، ومع أنه يكبر موسى بعامين إلا أن موسى قد مدّ يده إليه فأمسك بشعر رأسه ولحيته وجرّه منهما بغضب ، ولم يصنع هارون شيئًا إلا التماس الأعذار لنفسه ، فلقد خاف أن يتهمه بتفريقه لبنى إسرائيل .

وقد توقفت هذه الشخصية عن النمو عند قبول موسى لعذره ، ولا نلمح عن هذه الشخصية تغييرًا يذكر منذ أن طالعتنا فى أول مرة .

أما بنو إسرائيل فهم جموع كثيرة يسيطر عليها فكر واحد وسلوك معين ، وهم من الناحية الفنية يمكن أن يعدوا شخصية واحدة ، فهم لا يتنوعون فى سلوكهم ، ولا يختلفون فى تفكيرهم ، بل يشتركون فى خضوعهم واستسلامهم لفرعون ، وهم أصحاب غفلة ،

ولم تعمر قلوبهم بالإيمان القوى ، مما دعا موسى إلى وصفهم بالجهل والغفلة ، كما أنهم لا يكفون عن عصيان نبيهم ، وقد شقوا بذلك العصيان بأن ضلوا فى التيه أربعين عامًا .

وبنو إسرائيل شخصية لعبت دورًا غير قليل فى قصة موسى ، ولقد كانوا طرفا فى الصراع لا يمكن إغفاله .

ونحن نلحظ على هذه الشخصية أنها غير قابلة للنمو والتغير إلى الأفضل ، ولذلك لم ينتفعوا كثيرا برسالة نبيهم الكريم .

فجعل بنى إسرائيل شخصية أمر مقبول فى نظرنا من الوجهة الفنية ، والروائيون يجعلون للفئات الشعبية وحشود العمال والفلاحين – دورًا هامًا فى لصراع وتسيير الأحداث ، كما يجعل الروائيون للمكان دورًا هامًا فى توجيه الحدث ، وبنو إسرائيل طرف هام جدًا فى الصراع ، وجزء لا يمكن إهماله فى قصة موسى .

أما بطل القصة أو الشخصية المحورية التى تتشابك حولها الأحداث والشخصيات – فهى شخصية موسى عليه السلام ، وهى التى نلحظ عليها النمو الواضح ، والتغيير الكبير ، وهى تطالعنا منذ الولادة حتى دخول الأرض المقدسة بعد التيه . فلقد ولد موسى فى عام توعد فيه فرعون كل طفل يولد من بنى إسرائيل بالذبح ، وقد من الله عليه ونجاه من بطش فرعون ، وتَسْخَرُ الأحداث وقدرة الله من فرعون الذى يتولى رعاية هذا الطفل وتربيته وهو لا يدرى أنه الطفل الذى سيكون سببًا فى هلاكه .

ثم يبدو لنا موسى شابا يافعا متورطا فى حادثة قتل المصرى ، فيهرب من مصر ويتعلم من الغربة ومن الرجل الصالح ما يؤهله لحمل الرسالة السماوية ، ومواجهة فرعون وجنوده والسحرة ، وقد خرج مع بنى إسرائيل من مصر ، وبدأ جهاده معهم لهدايتهم حتى نهاية حياته .

وشخصية موسى حافلة بالمجاهدة من أجل الحق وهداية قومه من ناحية ، ودعوة فرعون إلى الله وحده من ناحية أخرى ، هذه الحياة حلقات ومراحل كما ألمحنا . وقد تغيرت مراحل هذه الحياة حسب ما تقتضيه كل مرحلة ، والمؤثرات التى أحاطت بكل منها ، وقد تعددت هذه المراحل وتلك المؤثرات وتغيرت واختلفت ، ومن ذلك :

تغيرّ موقف موسى من قومه ، فلقد نصر رجلاً من أهله عندما استصرخه ، وقتل من أجله رجلاً من أهل مصر ، وكاد أن يقتل شخصا آخر ، لكن موقفه من قومه قد تغير عندما رماهم بالجهل وثار عليهم ، وتركهم ليضلوا فى التيه .وهذا ينسير إلى تغير

شخصية موسى بعد التكليف ، وبعد انتقاله من مرحلة الشباب والحماس إلى مرحلة الرجولة والتعقل .

كما اختلف موقفه من فرعون بعد البعثة والتكليف ، لقد كان خائفًا من فرعون وبطشه مما دعاه إلى الهرب من مصر بعد حادثة القتل ، لكنه عاد إلى مصر غير متخف ، وواجه فرعون وخاطبه وحذره وهو أمر لا يقدر عليه غيره ، فالناس يسجدون لفرعون ، وموسى يخاطبه مخاطبة الأنداد ، فيدعوه ويحاوره وينذره . وآيات الله وتكليفه بالرسالة قد غيّرا من شخصية موسى تغييرًا كبيرًا ، وبخاصة فى موقفه وعلاقته بفرعون .

ومن مظاهر هذا الاختلاف موقفه من أخيه هارون ، فهو أخوه الذى أعانه وشد من أزره ، وعبر عما لم يتمكن موسى من التعبير عنه ، فهو أفصح منه ، وهو المعروف برجاحة العقل . لكن مظاهر التوقير التى كان يبديها موسى لأخيه قد زالت عندما ظن أن لهارون دورًا فى فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، فعصف به الغضب وعلت يده على أخيه : فلقد تغير موقف موسى بعد أن تحمل مسئولية الرسالة ورعاية بنى إسرائيل ، فهو لا يعنيه شيء غير الرسالة حتى لو تعلق الأمر بأخيه أو قومه .

كل هنا يبين أن شخصية موسى وحدها هى التى ظهر فيها التغير ، وأنها قد لحقها من النمو ما تحتمه المواقف وتفرضه عليها المؤثرات ، ونلحظ أنها تمت فى جوانب مختلفة ، مثل الجانب السلوكى .

وإذا أردنا أن نوضح السمات الخاصة لشخصية موسى فإننا نستطيع أن نشير إلى أعمها ، وهى سمات تتآلف معًا لبناء شخصيته ومنها :

(أ) القوة :

وهى من الخصائص الواضحة فى شخصية موسى ، وقد ظهرت فى مواقف منها :

– عندما وكز المصرى وكزة أدت إلى موته ، وهو لم يكن يقصد قتله فى الحقيقة ، وإنما أراد أن ينصر الرجل الذى استصرخه ، وهو من قومه بنى إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾[1] .

---

(١) سورة القصص آية ١٥ .

كما ظهرت هذه القوة عندما قام بالسقاية للفتاتين فى مدين وقد وصفته إحداهما بالقوة والأمانة عندما طلبت من أبيها أن يستأجره ﴿قالت إحداهما : يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾[1] .

كما نجد مظاهر القوة فى شخصية موسى متمثلة فى مواقف لا تدل فقط على القوة الجسدية ، بل تخبر عن قوة النفس والجسد معًا ، وقد تمثل ذلك بوضوح فى قيادته وزعامته لبنى إسرائيل ، فقوة شخصيته المستمدة من الله سبحانه هى التى جمعت بنى إسرائيل ووحدتهم ، وجعلتهم يتبعونه فى الخروج من مصر ، وقد عبر بهم اليم بلا خوف ولا تردد .

وقوته النفسية هى التى قضت على فتنة السامرى الذى لم يجد خلاصًا من موسى إلا بالاعتراف بالذنب والاعتذار عن خطيئته ، وموسى قد قواه الحق فلا يخشى فيه أحدا وقد واجه السامرى بقوة وشجاعة قائلا ﴿فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعدًا لن تخلفه : وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرّقنه ثم لَنَنسِفَنَّهُ فى اليم نسفًا ﴾[2] .

ولولا قوته النفسية المستمدة من الله ما كانت لديه الجرأة على مواجهة هذا الرجل الداهية ، وما تمكن من الجرأة على إلهه الذى توعده بالنسف والحرق ، ولم يستطع ذلك الرجل أن يواجه قوة موسى وشجاعته .

ومن صور القوة النفسية والجسدية صبره وتحمله لغفلة بنى إسرائيل وجهلهم ، لقد طلبوا منه أن يجعل لهم إلها من صنم يعبدونه من دون الله ، وقد تركهم مع أخيه فضلوا واتبعوا فتنة السامرى ، ولم يتبعوه فى الدخول للأرض المقدسة ، وقد صبر موسى على هذه الجهالات ، وهو صبر يؤكد قوته النفسية التى لاتدفع به إلى الإحباط واليأس .

ومن الملامح المميزة لشخصية موسى أيضًا :

(ب) الانفعال الشديد :

وهى سمة واضحة فى شخصيته ، وقد وجه ذلك الانفعال سلوكه فى مواقف متعددة ، وهو انفعال لم يضر به ، ولم يعرقل مسيرته فى الدعوة وتبليغ الرسالة ، بل نرى

---

(١) سورة القصص آية ٢٦ .

(٢) سورة طه آيات ٩٥ – ٩٧ .

أن المواقف التى ظهر فيها ذلك الانفعال الشديد كانت تستوجب وجوده ، فكثير من المواقف لاتصلح فيها المهادنة والحيلة والملاطفة ، وبخاصة إذا كان الطرف المقابل لا يصلح معه إلا القوة والعنف ، لقد كان انفعاله الشديد لازمًا مع بنى إسرائيل الذين اتعبوه وعصوه ، كما كان ضروريا أيضا فى مواجهة السامرى وفتنته ، لكننا نجده فى مواقف أخرى معبرا فقط عن شخصية موسى ، فلم تكن هناك ضرورة فى نظرنا لتصاعد ذلك الانفعال ومن ذلك :

حماسه الشديد للرجل الذى استنصره وهو من شيعته ، وكان انفعاله وتحديه للمصرى دافعًا إلى تخطى حد المعقول ، فلم يقف عند فض الاشتباك بين الرجلين المتقاتلين ، بل دفعه الحماس والغيرة على أهله إلى أن يستخدم القوة ، فوكزه فأرداه قتيلا .

وهذا الانفعال هو الذى أحاطه بالخوف ودفعه إلى الهرب من مصر .

ويشير المفسرون إلى موقف آخر تبدو من خلاله شخصية موسى وقد سيطر عليها الانفعال الشديد ، فعندما ذهب موسى لميقات ربه أخبره سبحانه بفتنة السامرى لقومه الذين ضلوا ، فلم يتحمل موسى هذا الخبر ويقولون أنه قد شق قميصه ، ويذكر ذلك القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربّ لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا : أفطال عليكم العهد ، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى﴾[1] وشقّ موسى القميصَ يخبر عن قمة الانفعال والغضب الذى لحقه ، وقد أشرنا إلى تنبه المفسرين إلى هذا الجانب فى شخصية موسى[2] .

ومن مظاهر الانفعال فى شخصية موسى خوفه مرتين من الحيات ، فلقد خاف وارتعد عندما رأى العصا التى ألقاها حية تسعى ، ولم يذهب خوفه إلا بعد أن طمأنه ربه وأمره بأخذ عصاه التى عادت إلى سيرتها الأولى بأمر ربه ، قال تعالى : ﴿وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾[3]

---

(١) سورة طه آيات ٨٣ – ٨٦ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢٧٢ .

(٣) سورة طه آيات ١٧ – ٢١ .

وقد تملكه الخوف أيضا عندما خيل إليه أن حبال السحرة وعصيهم حيات تسعى ، ولولا أن طمأنه ربه ونهاه عن الخوف لذهب به الانفعال والخوف كل مذهب ، قال تعالى : ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل القوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[1] .

ومن المظاهر التى تعبر عن شخصيته الانفعالية موقف يدل على دلالتين انفعاليتين متقابلتين ، فلقد جاء موسى لميقات ربه الذى اصطفاه عى الناس بالرسالة وما ميزه عن الرسل بالتكليم ، مما يستوجب منه الشكر لربه ، لكن هذا الاصطفاء وذلك التميز قد دفع موسى إلى التدلل على ربه ، وقد حداه الطمع إلى أن يطلب من ربه شيئًا لا يتحمله ، ولا يقدر عليه ، لقد عاش موسى فى نشوة ذلك الاصطفاء ، وفى بهجة ذاك التكليم فطلب رؤية ربه فى جرأة واندفاع ، فهو لا يتذكر قدراته المحدودة ، وضعفه البشرى الذى لا يعينه على طلبه ، وقد أخبره سبحانه بعجزه عن رؤيته لكن نشوته وانفعاله قد دفعا به إلى ذلك التدلل والطمع ، ولما أراد أن يثبت له عجزه عن إدراك ذاته سبحانه أمره أن ينظر إلى الجبل الضخم الذى تجلى بجزء من نوره عليه ، فتفتت وتناثر ، ولم يملك موسى نفسه من هول ما رأى فسقط مغشيًا عليه ، ولما أفاق استغفر الله على جرأته وطمعه فى هذا المطلب الذى لا يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال ربِّ أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا ، وخرّ موسى صعِقًا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾[2] .

ففى هذا الموقف مظهران متقابلان للانفعال ، مظهر النشوة والتدلل ومظهر الصعق الذى أصابه عند رؤيته للجبل المنهار ، وكلاهما قمة للانفعال .

ومن مظاهر الانفعال التى بدت من شخصية موسى ما رأيناه فى موقفه من أخيه هارون عندما عاد من الميقات ليجد فتنة السامرى قد استشرت فى قومه ، وقد صب جام غضبه على أخيه فأمسك بشعر رأسه لحيته يجرد منهما فى غضب شديد .

---

(١) سورة طه آيات ٦٥ – ٦٨ .

(٢) سورة الأعراف : آيات ١٤٣ – ١٤٤ .

وهذه المظاهر والمواقف توضح فى شخصية موسى خاصية الانفعال الشديد وقد لفتت هذه الصفة نظر المفسرين كما أشرنا ، وقد أكد على ذلك فى عصرنا سيد قطب عندما وصفه بأنه زعيم مندفع عصبى المزاج [١] وهى صفات توهم بالمرض .

ونحن نفضل استعمال لفظة (الانفعال) حتى لا يظن باستخدام لفظة (العصبى) أن موسى مصاب بأحد الأمراض المتصلة بالأعصاب . ونحن نجد كل الناس ينفعلون ، ويتجاوبون شعوريًا مع الأحداث ، ومن الطبيعى أن يتفاوت الناس فى درجات الانفعال ، ولا عجب فى شدة انفعال موسى ، وتجاوبه الشعورى مع الأحداث الكبرى التى أحاطت به . لذلك نحترس من وصف سيد قطب له بأنه زعيم مندفع عصبى المزاج .

وخصوصية الانفعال الشديد ضرورة منطقية وفنية فى بناء شخصية موسى ، وهذا البناء قد شكله الواقع المحيط به آنذاك قبل أن يكون ضرورة فنية فى نمو شخصيته .

من الخصائص التى تميز شخصية موسى وتشترك فى بنائها .

(جـ) الغيرة :

وتتحدد دلالة كلمة (الغيرة) بحرف الجر المستعمل معها ، (فالغيرة) التى تسبق الحرف (مِنْ) تصنف فى باب الضعف والمرض والحسد ، فالذى يشعر بالغيرة من غيره يثبت على نفسه رذيلة الشعور بالضعف ، وعدم القدرة على مجاراة الآخرين والتنافس معهم ، فهو يسلم لهم ضمنًا بأنهم متفوقون عليه .

أما (الغيرة) التى تسبق الحرف (على) فإنها من باب القوة ، والشعور بالإباء والحرية والكرامة ، وإذا قلنا إن فلانًا يشعر بالغيرة على وطنه أو عرضه أو دينه – فإنه يغار على حق يجب الدفاع عنه .

وكان موسى عليه السلام يشعر بالغيرة على الحق ، لأنه كان قويًا ، وقد أنعم الله عليه بنعم لم ينلها أحد قبله ، فليس هناك ما يدعوه إلى الغيرة من غيره ، ولم نعثر فى قصة موسى على ما يشير إلى ذلك .

وقد تمثلت غيرته على الحق فى غيرته على عرضه فمن المعلوم أنه تزوج ابنة الرجل الصالح ، وقد عاد من مدين قاصدًا مصر ، وكان فى رفقته زوجته وولده ، وجماعة من الناس ، كما كان معه قطيع صغير من الغنم ، ويقول ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾[٢] .

---

(١) انظر لتصوير الفنى فى القرآن ص ١٦٤ . دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٥ .

(٢) سورة طه : آيات ٩ – ١٠ .

لما قضى موسى الأجل المتفق عليه سار بأهله من مدين يريد مصر ، وقد أخطأ الطريق لأنه يصحب الناس ليلاً ويفارقهم نهارًا ، لأنه كان غيورًا ويخشى أن يرى الناس امرأته ، فأخطأ الرفقة لأنها كانت ليلة مظلمة[١] .

لقد كان موسى غيورًا حقًا على عرضه إلى الدرجة التى تجعله لا يختلط بالنهار مع الرفقة التى تصحبه فى السفر ، وقد جرّت عليه هذه الغيرة متاعب غير قليلة ، يقول وهب بن منبه فى تفسير هذه الآية أن موسى قد استأذن الرجل الصالح فى الرجوع إلى والدته فأذن له ، فخرج بأهله وغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئا ، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق[٢] وهذا يؤكد أنه كان وحده عندما جاء امرأته المخاض فى تلك الليلة الباردة ، ولم يكن معه أحد يعينه فى تلك الشدة ، وهذا يؤكد أيضًا ما قاله ابن عباس .

وهذه الغيرة حميدة ، لأنها غيرة على العرض حتى لو بدت لنا فى صورة مبالغ فيها ، لأنها فى النهاية غيرة على حق .

ولا تتوقف غيرته على العرض فقط ، بل يمكن أن نعدّ له بعض المواقف التى تصنف فى الغيرة على الدين أو الوطن .

فيمكن لنا أن نعد نصرته للرجل الذى من عشيرته لونًا من الغيرة الوطنية أو القومية ، ولم يكن ليندفع إلى نصرته لولا أنه من قومه بنى إسرائيل ، ولقد كان موسى آنذاك فتى يافعًا شديد الحماس ، ولا يلام على ذلك الانفعال والانحياز لبنى قومه ، وبخاصة أنه يعلم ما لحق قومه من الظلم الذى صبه فرعون عليهم ، ونعل فى انحيازه لقومه دفعًا وتعبيرًا عن رفض الظلم الواقع عليهم . وقد كان خروجه بهم من مصر تتويجًا لجهوده التى توجهت إلى إنقاذهم ، وقد أعانه الله على ذلك .

أما غيرته على الدين فقد وضحت فى مواقف كثيرة ، ونرى أن غيرته على عرضه وقومه تتضاءل إذا ما تعارضتا مع غيرته على الدين ، فهو يلوم قومه ويؤنبهم ويرميهم بالجهل كلما انصرفوا عن الدين ، وقد ظهر ذلك عندما طلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢١١ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢١١ .

دون الله ، كما وضح أيضًا فى فتنة السامرى ، وفى انصرافهم عن دخول الأرض المقدسة ، وفى موقفه من أخيه هارون عندما ظن أنه أهمل القوم ولم يقم برعايتهم .

فموسى عليه السلام كان شديد الغيرة وكانت غيرته من أجل الحق وقد ظهر ذلك فى غيرته على عرضه وقومه ودينه ، وأشد مظاهر تلك الغيرة ، كانت على الدين كما أشرنا . وهذا يعنى أن غيرته كانت فضيلة ولم تكن رذيلة أو تعبيرًا يخفى وراءه ضعفًا بشريًا .

ومن خصائص شخصية موسى التى تساهم فى بناء شخصيته صفة :

(د) الرجوع إلى الحق :

والرجوع إلى الحق ، وعدم المكابرة فضيلة تحسب لصاحبها ، وتضمه فى زمرة ذوى الخلق الكريم ، ولقد كان موسى عليه السلام من هذا الطراز ، يثوب إلى رشده عندما يتبين له الحق ، حتى ولو كان المبين رجلاً من عدوه ، وقد تمثل ذلك فى مواقف واضحة منها :

شعوره بالإثم ، وتأنيب الضمير عندما قتل المصرى دون قصد ، لكل موسى قد شعر بأنه السبب فى قتله ، وندم موسى على ما فعل ، وتوجه إلى ربه مستغفرًا ، وعدّ عمله هذا من غواية الشيطان عدو بنى آدم ومضلهم ، وقد توجه إلى ربه طالبًا المغفرة ، وقد استجاب الله له . قال تعالى : ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال ربِّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾[1] لقد شعر موسى بخطئه وتوجه إلى الله تائبًا مستغفرًا وقبل الله توبته .

ونجد موسى التائب خائفًا من أهل المدينة ، وإذا بالرجل الذى ورّطه بالأمس فى حادثة القتل يكاد يورطه فى حادثة أخرى تشبهها ، فلقد رآه يتقاتل مع رجل آخر ، ولما رأى موسى استصرخه وطلب مؤازرته ، لكن موسى قد منع نفسه عن المشاركة فى المقاتلة أول الأمر واتهم الرجل الذى من شيعته بالغواية الظاهره ، ويبدو أن موسى لم يستمر فى ضبط النفس ، فقد اندفع ليبطش بعدوه ، لكن موسى قد ارتدع عندما ذكره ذلك الرجل بفعلته بالأمس ، وحذره من الانسياق فى هذا الطريق الذى يجعله جبارًا فاتكًا ويبعده عن طريق الصالحين .

---

(١) سورة القصص : آيات ١٥ – ١٧ .

لقد عاد موسى إلى صوابه بعد أن سمع كلمات عدوه ، وقد وقعت هذه الكلمات فى قلب موسى موقعًا طيبًا ، فامتثل لمعناها ، وثاب إلى رشده ، ورجع إلى الحق قال تعالى : ﴿فأصبح فى المدينة خائفًا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لغوىّ مبينٌ . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارًا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾[1] .

لقد عاد موسى إلى الحق وارتدع عندما خاطبه عدوه بهذا القول ، وانصرف عن المقاتلة .

وعندما أخبره رجل جاءه من أقصى المدينة باجتماع أهل المدينة عليه ليقتلوه صدقه وامتثل لنصحه وخرج من المدينة ، قال تعالى : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال ربّ نجنى من القوم الظالمين﴾[2] .

ولم يكابر موسى أو يجادل أخاه هارون عندما علل هارون موقفه من فتنة السامرى ، وتركه بعد أن اشتد غضبه وجره من شعر لحيته ورأسه ، واستمع إليه وصدّق ما قاله أخوه ، وتوجه إلى مصدر الفتنة ليواجهه ، وقد ذاب غضبه من أخيه عند سماعه لقوله ، وهكذا قد رجع إلى الحق سريعًا ، ولم تكن المجادلة والمكابرة نافعة فى ذلك الموقف ، وقد نفعه التصديق الذى ساعده على الإسراع إلى مواجهة الفتنة والتضليل . ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعنِ أفعصيت أمرى . قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى﴾[3] .

ولقد كانت توبة موسى لربه خالصة قوية عندما أفاق من صعقه بعد أن رأى الجبل ينهار ويتفتت ، وعندما تجلى الله عليه بنوره ، لقد نسى موسى نفسه ولم يعرف قدراته المحدودة عندما طمع فى رؤية ربه ، وهو طمع ساقه إليه التدلل على ربه ، قد أراد الله سبحانه أن يعلمه ويعلم الآخرين من بعده أن صفاته جل ثناؤه لا يستطاع تصورها ،

---

(١) سورة القصص : آيات ١٨ – ١٩ .
(٢) سورة القصص : آية ٢٠ .
(٣) سورة طه : آيات ٩٢ – ٩٥ .

وذاته سبحانه لا تحد بحدود ، والمخلوقات العظمى كالجبال تتزلزل وتنهار عندما يسطع عليها قبس من نوره تعالى .

وعندما رأى ما حدث للجبل عرف أنه قد أخطأ فرجع إلى الله مستغفرًا طالبًا التوبة ، قال تعالى على لسان موسى . ﴿قال ربِّ أرنى انظر إليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا ، وخرّ موسى صعِقًا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾[1] .

ومن الخصائص المميزة لشخصية موسى وتشارك فى بناء شخصيته :

(هـ) المروءة والعفة

وهما فى الحقيقة فضيلتان مستقلتان ، لكننا نراهما فى شخصية موسى مترابطتين ، وقد ظهر ذلك الترابط بينهما فى موقف موسى من ابنتى الرجل الصالح ، فلقد تزاحم الرعاة على الماء ولم تتمكن الفتاتان من سقاء الماشية التى دفعتاها إلى الماء ، وقد ظهرت مروءة موسى عندما قام بالسقاء ، وصانهما من تدافع الرعاة والحيوانات ، وأحس موسى بضعفهما وأنهما من بيت كريم ، ولم يطلب منهما أجرًا ، ولم يشترط عليهما شرطًا ، بل تركهما تنصرفان دون أن يعرف عنهما شيئًا إلا أن أباهما شيخ كبير ، وهذا صنيع أصحاب النخوة والمروءة الذين لا ينتظرون أجرًا أو صيتًا على ما قدموه من خير . قال تعالى : ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما قالتا : لا نسقى حتى يُصدِر الرّعاءُ ، وأبونا شيخٌ كبيرٌ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال ربِّ إنى لِمَا أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقير ﴾[2] .

وفى موقفه من الفتاتين تبدو فضيلة العفة بعد أن ظهرت فضيلة المروءة منه بوضوح . فلقد جلس فى الظل ، ولم يتبعهما بقدميه أو ناظريه كما يفعل العوام والمتطفلون ، وعلى غير توقع جاءته واحدة منهما والحياء يسيطر عليها ، وأخبرته بدعوة أبيها له فى منزله ، وقد لبى موسى الدعوة ، ولم يسمح للفتاة أن تسير أمامه إلى المنزل ، بل جعلها تسير خلفه حتى لا ينظر إليها . وهذا مسلك يخبر بعفافه الكامل ، وقدرته على التحكم فى شهواته ، وقد هيأ الله له الزوجة الصالحة ، وهى ابنة رجل صالح حقا . قال تعالى : ﴿فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٣ .

(٢) سورة القصص : آيات ٢٢ – ٢٤ .

لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبتِ استأجره ، إنَّ خير من استأجرت القوى الأمين . قال إنى أريد أنْ أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ ، والله على ما نقول وكيل﴾ (١) .

هذه خصائص وصفات متأصلة فى شخصية موسى عليه السلام وهى جميعُ خصائص حميدة وفضائل أصيلة فى شخصيته ، وكل هذه الفضائل تتآزر مع بعضها فى تكوين أو بناء شخصيته ، وهى التى هيأته لتحمل الرسالة والقيام بتبليغها ، ومواجهة الطغاة والكفرة وأصحاب الغفلة ، وهذه أمور لا يتحلى بها إلا الأنبياء الذين اصطفاهم الله . والأبطال الأفذاذ الذين تصورهم الأعمال الأدبية الكلاسيكية ، وهم غالبًا مصورون من عالم الخيال ، وشخصية موسى بهذه الفضائل واقع أورده القرآن الكريم ، وهى من الناحية الفنية مبنية على خصائص تؤهلها لتقف أمام الشخصيات والأبطال فى الأعمال القصصية الكبرى الخالدة .

وهؤلاء الأبطال منتزعون من الواقع ، لكنهم يتفوقون على نظرائهم من البشر فى عمق الصفات المشتركة وبلوغها درجة عالية نحو الكمال ، لذلك يندر وجود هؤلاء الأبطال فى الواقع ، والأنبياء فقط هم الذين يتمتعون بهذه الصفات التى تقربهم أو تضعهم فى مقام الكمال . وينحو رجال الأدب هذا المنحى فى السمو بأبطالهم ليصلوا بهم إلى مصاف الأنبياء .

* * *

ومن الأسس الفنية التى تقوم عليها القصة المعاصرة :

٤ – نمو الأحداث وعلاقتها بقمة الصراع :

والقصة فى جوهرها تعبر عن حدث أو أحداث تحاكى بالسرد أو الرواية ، وتنمو تلك الأحداث وتتشابك لتصل إلى درجة التعقيد ، والشخوص فى العمل القصصى يتصارعون وهم يحملون الأحداث إلى غايات يقصدها الكاتب ، وعندما تبلغ الأحداث مداها ويجد الشخوص أن تصارعهم قد وصل إلى طريق مغلق – يكون الصراع عندئذ

---

(١) سورة القصص : آيات ٢٥ – ٢٨ .

قد وصل إلى قمته . وقمة الصراع هى عقدة العمل القصصى أو المسرحى ، ولابد للعقدة أن تجد طريقًا إلى الحل عند الأدباء ، أو تترك للنظارة ليروا فيها ما يشاءون .

وقصة موسى يتمثل فيها هذا العنصر الفنى الذى تقوم عليه القصة المعاصرة ، فالأحداث تنمو وتتشابك ، والأبطال يتصارعون ليصلوا بالأحداث إلى قمة الصراع أو العقدة ، والصراع فى قصة موسى له مظهران : عام ، وخاص ، أو كلى وجزئى .

أما الصراع العام فهو متمثل فى الصراع الأبدى بين الخير والشر ، أو الإيمان والكفر .

وطرفاه الشيطان وأعوانه وتابعوه فى جانب ، وأبناء آدم الصالحون العقلاء فى الجانب الآخر .

ومن المعلوم أنه صراع بدأ مع آدم عليه السلام وإبليس منذ بداية الخلق ، وقد امتد هذا الصراع وتكرر وعانى منه الأنبياء والصالحون ، وقد تحمل موسى عليه السلام جانبًا من هذا الصراع العام ، وهو يمثل طرف الأخيار الأطهار ، أما الطرف الآخر فقد تمثل فى أتباع الشيطان كفرعون وهامان والسامرى وبعض قومه العصاة .

وقد شمل هذا الصراع العام حياة موسى ، كما شمل حياة الأنبياء السابقين ، لأنه صراع أبدى لا ينتهى بموقف أو حياة رجل من بنى الإنسان .

وغالبًا ما تنتهى حلقات ذلك الصراع الأبدى بانتصار الخير على أيدى أنبياء الله الصالحين ، وقد انتصر الحق ، وانتهى الصراع بين موسى والعصاة بهزيمة الباطل . لكن سرعان ما ينتهى زمن الأنبياء ليشب الصراع من جديد مع دعاة الخير وأصحاب الشر ، كل ذلك لحكمة يدبرها خالق هذا العالم ومسير أموره .

ولهذا الصراع العام صوره المفصلة التى تبدو أجزاؤها وعناصرها وأطرافها ظاهرة ، وهو ما أطلقنا عليه :

الصراع الخاص أو الجزئى :

لقد تجسد الصراع فى مواقف متعددة أطرافها ، ونجد منها :

الصراع بين فرعون وموسى : فلقد ذهب موسى مطيعًا لأمر ربه – إلى فرعون الذى طغى فى الأرض ، وقد دعاه موسى إلى الإيمان بالإله الواحد ، ولم يستجب فرعون ، وكَذَّبَ موسى واتهمه بالسحر ، وكابر وعاند ، مع أنه أعلم الناس بموسى الذى تربى

فى قصره حتى صار شابًا ، فيبدو أن الماضى الذى كان بينهما قد تدخل فى تحديد موقف فرعون منه ، ومن المستغرب ألا ينتقم فرعون من موسى عقب عودته إلى مصر، فكان من الممكن أن يجد فرعون ذريعة للفتك بموسى انتقامًا منه لقتله المصرى، أولسبب آخر .

لكن فرعون رجل ذو حنكة ومكر ، فلقد أراد أن يظهر موسى ويفضحه فى ملأ كبير ، فجمع له السحرة ووعدهم بالجزاء الحسن عند فوزهم على موسى .

لقد كان فى مقدور فرعون أن يزج بموسى وأخيه فى سجن ، أو يقتلهما وينتهى أمرهما بالنسبة إليه ، ولكنه أراد أن يتلذذ بإسقاطهما من أعين الناس ، وتصفية أمرهما ، حتى لا يصيرا بطلين فى أعين الناس بعد ذلك ، وهذا أمر غير مستبعد من رجل مثل فرعون ، وبخاصة إذا كان عمره المديد يناهز السبعين عند دعوة موسى له ، فلم يكن عمره عند التقاطه موسى من اليم يقل عن ثلاثين سنة وموسى قد بُعِث فى الأربعين .

هذا إذا عددنا فرعون موسى واحدًا ، وهو ما نميل إليه ، وهناك من يرى أنهما اثنان ، أحدهما قد التقطه ورباه فى قصره ، والآخر هو الذى توجه إليه بالدعوة . ونحن نميل إلى أن فرعون موسى واحد فقط .

وهكذا يكيد فرعون لموسى ، ويحرض السحرة عليه ، ويجادله فى الدين الذى جاء به ، والإله الذى يدعو إليه ، وتمضى الأحداث وتشتد عند التقاء موسى بالسحرة فى يوم مشهود ، وكل الأنظار موجهة إلى المباراة المرتقبة بين موسى والسحرة ، والقلوب معلقة بنتيجة التحدى بينهما ، وموسى يرتجف من هول الموقف وقد زاد خوفه عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وقد خيل له أنها حيات تسعى ، وهنا تصل الأحداث المتصاعدة بالشخوص إلى قمة الصراع ، وإذا توقفت الأحداث عند هذا الحد فإنها تقف عند عقدة مقبولة أو محبوكة كما يقولون . ولابد لهذه العقدة من حل ، لأن قصة موسى لم تتوقف عند تحدى السحرة ، ولقد جاء الحل فى نهى الله له عن الخوف ، وأمره ربه أن يتماسك ويظهر آياته المعجزات ، وألقى عصاه التى كانت برهانًا على صدق دعوته ، وسبيلاً إلى نصره على السحرة الذين سلموا بعجزهم وآمنوا به .

وهنا يخرج فرعون عن هدوئه ووقاره ، فيغضب ويثور ويتوعد السحرة بالقتل والتصليب على جذوع النخل ، لأنهم خرجوا عن طاعته ، وآمنوا بموسى وربه قبل أن يأذن لهم . وغضب فرعون فى حقيقته يعبر عن هزيمته وضعفه .

وتمضى الأحداث وتتشابك ليحتدم الصراع مرة أخرى بين فرعون وموسى ، وهنا نجد فرعون قد تخلى عن هدوئه وتملكه الغضب الذى يقود صاحبه غالبًا إلى الوقوع فى الخطأ ، فلقد أطاع موسى ربه وخرج بقومه ليلاً من مصر ، وعندما علم فرعون بخروجه مع قومه تعقبهم ، وخرج يلاحقهم ليبطش بهم ، وقد لحقهم حتى حاصرهم بالبحر من ناحية وبجنوده من ناحية أخرى ، إن الأحداث تنمو وتتعقد ، وتبدو أزمة شديدة تلاحق موسى وقومه ، وما الذى يقدر عليه موسى وقومه وهم لا عهد لهم بالحرب ، ولا دراية لهم بالسلاح ، إنهم بحسابات البشر هالكون لا محالة ، وهنا يصل الصراع إلى مداه ، وتبدو هنا عقدة أخرى محكمة .

ولا يجد الروائيون سبيلاً لحل مثل هذه العقدة إلا فى اتجاهين أولهما هزيمة بنى إسرائيل أمام فرعون وجنوده ، وثانيهما تسليم بنى إسرائيل لفرعون والخضوع لأوامره وانتهاء أمر موسى ودعوته .

لكن حل هذه العقدة فى القصة القرآنية تتمثل فى معجزة إلهية غير خاضعة للواقع المترقب ، فلقد أمره الله سبحانه أن يضرب البحر بعصاه ، وقد تشقق البحر إلى طرق سار فيها بنو إسرائيل .

وكان من الممكن أن تكون نجاة بنى إسرائيل من فرعون وجنوده هى نهاية سعيدة للقصة ، لكن القرآن الكريم أراد أن يضع نهاية أسعد للصراع بين فرعون وموسى ، فكانت نهاية فرعون عندما ظن أنه قادر على تتبع موسى وقومه فى المياه ، وكانت نهاية فرعون عبرة لكل الطغاة .

ونلحظ فى مواقفه المتعددة مع بنى إسرائيل شيئًا من هذا العنصر الفنى ، وقد ظهر ذلك الصراع فى انصرافهم عن دعوته مرتين ، وكانت الأولى عندما طلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا من الأصنام لأنهم رأوا فى طريقهم قومًا يعبدونها ، وغضبُ موسى عليهم نتيجة حتمية لهذا السلوك الغريب الذى يخبر عن جهل وغفلة . كما تمثل فتنة السامرى وتضليله لهم لونًا من الصراع المتصاعد ، وهذه هى المرة الثانية التى انصرفوا فيها عن دعوة موسى ، وهو انصراف عملى وحقيقى ، وهو يخالف انصرافهم الأول الذى كان شروعًا ومطلبًا ، وقد وقف موسى دون تحقيقه لهم ، ولنا أن نتصور الجهد الذى بذل فى ردهم إلى صوابهم فى كلتا المرتين .

وكل ذلك يعدّ فى تصاعد الصراع بالأحداث المتدافعة بين بنى إسرائيل وموسى .

ومن العناصر الفنية التى نراها فى الفن القصصى – عنصر :

٥ – المفاجأة :

وهو عنصر يهتم به بعض الروائيين لإدخال السرور على القراء ، أو لجذب انتباههم ، أو لتغيير مسار تفكيرهم ، وكثير من كتاب القصة لا يحتفلون به ، ويرون أن الاهتمام بهذا العنصر وسيلة للتأثير فى القراء البسطاء أو العاديين فقط ، لكن خواص القراء لا يؤثر فيهم هذا العنصر .

وعنصر المفاجأة فى قصة موسى متوافر ، وهو موجود فى سورة طه ، والكهف ، والأعراف ، والقصص .

لقد كانت المفاجأة كبيرة على موسى عندما وجد النار التى رآها على بعد – صاعدة من شجرة عناب أو عليق كما يذكر المفسرون ، فخاف وارتعد من المفاجأة ، وتقهقر ورجع . وقد تلتها مفاجأة أكبر عندما نودى باسمه ، وكان مصدر النداء من الشجرة المضيئة[1] .

وكانت المفاجأة الثالثة فى هذا الموقف أيضًا ، فلم يكن يتوقع أن النداء من الله ، وأن الله قد اصطفاه ، وحمله تبليغ الرسالة إلى فرعون الطاغى ، وقد وردت المفاجآت الثلاث قوله تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾[2] .

نعم ، لقد فوجىء موسى بغير ما يتوقع ، ورأى غير ما اعتقد أنه رآه ، فليست النار التى بصرها نارًا مألوفة ، بل وجدها نورًا يضىء ، ولم يعد لأهله بقبس من النار التى توقعها ، بل عاد بهالة وضاءة من الإيمان ، ولم تكشف النار طريقه الذى يسلكه فى رحلته ، بل هداه ربه ، ورسم له الطريق بالاصطفاء والتكليم والتكليف بالرسالة . فعاد إلى أهله شخصًا آخر غير الذى قد تركهم منذ قليل .

ويمكن أن نعد من المفاجآت التى أخذت موسى وهزته هزًا عنيفًا –معجزات لله سبحانه، فلم يتوقع من قريب أو بعيد أن يرى العصا الخشبية الجافة حية تسعى، كما لم يخطر على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢١٢ .

(٢) سورة طه آيات ٩ – ١٣ .

باله أن ترجع العصا إلى سيرتها الأولى عند إمساكه بها، وأمر العصا كأمر اليد التى فوجئ بتغيير لونها، وعودتها إلى ماكانت عليه بمجرد ضمها إلى جيب جبته أوقميصه[١].

وهذه مفاجآت أربع إذا ما أردنا الإحصاء ، وبذلك تبلغ المفاجآت إلى سبع فى هذه الليلة وحدها .

وقد فوجئ موسى عليه السلام عندما جاء لميقات ربه – بإخبار الله بفتنة السامرى[٢] .

وقد أفزع هذا الخبر موسى إلى درجة أنه قد شق قميصه كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ومن المفاجآت التى أصعقت موسى رؤيته للجبل المدكوك المنهار عندما تجلى نور الله عليه ، ولم يصل توقع موسى إلى شىء مما وقع للجبل الضخم[٣] .

وفى سورة الكهف موقف حافل بالمفاجآت التى لم يتوقعها موسى من العبد الصالح الذى علمه الله ووهبه الرحمة الفياضة ، فلقد وجد موسى وفتاه ذلك العبد الصالح ، وعلمًا بماله من علم وطلب منه موسى أن يعلمه شيئًا مما أفاض الله عليه ، ورغب فى أن يكون له التلميذ والتابع الأمين ، وقد حذره ذلك العبد الصالح من عدم صبره ، وضعف تحمله للمواقف الصعبة التى لا علم له بها ، وقد وعده موسى بالصبر والطاعة ، وقد قبل موسى شرطه الذى يؤكد على تسليمه بكل ما يصنع ، فلا يطلب تعليلاً أو تفسيرًا لأى شىء يراه . لأن الجواب سيرد فى وقته المناسب[٤] .

وقد فوجئ موسى بخرقه للسفينة التى ركباها ، وقد انطلق موسى مستنكرًا ما فعله ، لأنه فى نظره قد تسبب فى أذى قد يلحق كل راكبى السفينة . وقد ذكره العبد الصالح بما حذره منه ، فاعتذر موسى له على هذا النسيان[٥] .

وقد فوجئ بعد ذلك بقتله لغلام عندما لقياه ، فلم يملك موسى نفسه ، واتهمه بقتل نفس زكية بغير ذنب . وقد أعاد عليه العبد الصالح ما اشترطه عليه ، وندم موسى على ذلك التسرع وكرر الاعتذار[٦] .

---

(١) سورة طه آيات ١٨ – ٢٢ .
(٢) سورة طه آيات ١٨ – ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٤٣ .
(٤) سورة الكهف آيات ٦٥ – ٧٠ .
(٥) سورة الكهف آيات ٧١ – ٧٣ .
(٦) سورة الكهف ٧٤ – ٧٦ .

وقد أبدى موسى تعجبه الشديد من عمل المعروف الذى قدمه إلى أهل القرية البخلاء الذين أبوا أن يضيفوهما ، ولامه على هذا الصنيع . وهنا يطرد العبد الصالح موسى من معيته ، ويحرمه من تلمذته ، ويؤول له ما لم يفهمه فى حينه لقلقه وعدم صبره .

ونسوق الآيات الكريمة التى تصور هذا الموقف بما يتضمنه من مفاجآت ﴿فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدًا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابرًا ولا أعصى لك أمرًا . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أُحْدِثَ لك منه ذكرا . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرا . قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلامًا فقتله ، قال أقتلت نفسًا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئًا نكرًا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ...﴾[1] .

لقد فوجئ موسى بما فعله العبد الصالح ، ومن الممكن أن يفاجأ أيضًا كل من يرى أو يسمع بهذه الأفعال قبل تأويلها ، والعلاقة بين موسى والعبد الصالح وما جرى بينهما – دروس مستفادة ، ومواعظ وعبر لمن يتأملها .

وقد توقف سيد قطب عند موقف العبد الصالح من موسى فى إطار تنوع المفاجآت فى القصص القرآنى ، وعنده أربعة أنواع .

أولها : ما يكتم فيه سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معًا فى آن واحد ، ومثل لذلك بموقف العبد الصالح من موسى .

وثانيها : ما يكشف فيه السر للنظارة ويترك الأبطال فى عماية عنه ، ومثل لذلك بقصة أصحاب الجنة .

---

(١) سورة الكهف آيات ٦٥ – ٧٨ .

وثالثها : ما يكشف فيه بعض السر للنظارة ، وهو خاف على البطل فى موضع ، وخاف على النظارة والبطل فى موضع آخر فى القصة الواحدة ، وقد مثل لذلك بقصة عرش بلقيس الذى جيء به فى غمضة عين .

ورابعها : لا يكون هناك سرٌ ، ويفاجأ البطل والنظارة معًا بأمر لا يعلمان عنه شيئًا ، ومثال ذلك ما حدث فى قصة مريم[1] .

نخلص من ذلك إلى أن المفاجأة فى قصة موسى عنصر ظاهر ، وموجود بصورة واضحة فى حلقات القصة فى سورة طه وغيرها . وهو يؤدى دورًا فنيًا فى بناء القصة الموسوية ، وهو متعلق ببناء شخصية موسى من ناحية أخرى .

ومن الأسس أو العناصر الفنية فى القصة :

٦ – السرد القصصى :

فالقصة تقوم على السرد أو الحكاية ، والقصاص يسرد الأحداث من خلال مواقف أو أشخاص ، فيقوم بالوصف الخارجى والداخلى ، كما يقوم بتحليل الشخصيات والمواقف على أسس علمية ، ومن خلال رؤيته الفردية التي تطبع أدبه بطابع خاص ولا يعنى هذا حصر القصة فى السرد ، وعدم وجود عنصر آخر كالحوار ، بل نجد الحوار بوضوح فى مواقف بين شخوص العمل القصصى ، لكن الأساس الذى يجب أن يكون واضحًا وغالبًا هو السرد .

ومن المعلوم الذائع فى فن القصة وجود طريقتين يلجأ إليهما الكتابْ لحكاية الأحداث ، الطريقة الذاتية ، وطريقة الحديث عن الغائبين ، **والطريقة الذاتية** هى التى يتقمص فيها الروائى أو القصاص شخصية البطل ، ويروى الأحداث من خلال تعامله معها ، وهذه الطريقة تقرب القصة من الواقع ، وتجعل القارئ يتابع الأحداث بشغف ، وهى طريقة تقترب من أدب الاعترافات .

وهذه الطريقة الذائعة للقصص المعاصرة لا تناسب القصة القرآنية ، لأن لها أهدافًا سامية غير أهداف القصة الأدبية التى ترمى غالبًا إلى إمتاع القارئ ، والتسرية عنه . كما لا يليق بذاته سبحانه أن يتصارع مع الشخوص كما يصنع البشر ، أو أبطال القصص ، فهو منزه عن ذلك ، وهو جل ثناؤه خالقهم ، ومسيّر الكون بما فيه .

---

(١) انظر التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ص ١٥٠ – ١٥٤ .

وهذه الطريقة لا تناسب القرآن من جهة فنية دقيقة ، وهى أن البطل يحيط بقدر غير قليل من الأحداث والشخوص ، لكنه فى الوقت نفسه لا يحيط بأشياء كثيرة أخرى ، وهذه الطريقة لا تناسب القرآن ، ولا يليق أن يكون الله سبحانه عالمًا بأشياء وتغيب عنه أشياء أخرى وهو سبحانه منزه عن ذلك .

ونحن لا نلمس هذه الطريقة بمفهومها المعاصر فى القرآن الكريم وقصصه الكثيرة .

أما الطريقة الأخرى للسرد أو الحكاية – فهى ما يرويه الكاتب من أحداث ومواقف وهو بعيد عنها ، غير مشارك فيها ، أو متصارع مع شخوصها ، وهى تعْرَفْ بطريقة التحدث عن الغائب ، أو طريقة العارف المحيط بكل شىء ، والكاتب يختفى وراء ستار ولا يشعر القارئ بوجوده ، وقد حذر نقاد القصة ودارسوها من تدخل الكاتب ، واللجوء إلى النغمة الخطابية ، أو الإعلان عن نفسه أو شخصه خلال سرده ، لأن هذا يُخْرج القارئ عن متعته ، ويبعده عن الانسياق مع أحداث القصة .

والقصة القرآنية تسير على أكثر ما تتطلبه هذه الطريقة ، وهى طريقة موجودة بوضوح فى القصة القرآنية بصفة عامة ، وفى قصة موسى بصفة خاصة ، وكلامه سبحانه عن موسى وغيره – كلام العليم المحيط بكل شىء عن الغائبين والحاضرين ، وما يعلمه شخوص القصة ومالا يعلمونه ، وما يسرونه وما يجهرون به ، وما حدث لهم فى الماضى ، وما سيحيط بهم فى المستقبل .

ومما يُلحظ فى السورة أن قصة موسى لا تقوم على السرد فقط ، وهى تختلف عن غيرها من السور فى ذلك ، إذ تأتى الآيات السردية منها أقل من الآيات الحوارية ، فهى ثلثها تقريبًا ، وتبلغ واحدة وعشرين آية فقط ، وآيات الحوار يبلغ عددها ثلاثًا وستين ، وهى ظاهرة تجعلنا ننظر إليها بدراسة خاصة وسنعقد لها فصلاً تانيًا .

ونحن نكتفى بما ورد عن الشكل القصصى فى سورة طه ، لننتقل إلى شكل آخر .

* * *

الفصل الثانى

فن الحوار

والحوار شكل تعبيرى معروف ، ويقوم عليه شكل رفيع هو فن المسرحية ، كما لا يخلو فن القصة منه كما أشرنا .

وهو فن قديم ظهر مع الفن المسرحى أو قبله فيما هو مفترض ، وبه تنمو الأحداث ، وتصور المشاعر ويتصاعد الانفعال ، وتنسج المواقف المأسوية أو الهزلية . ويقوم السرد فى القصة بما يقوم به الحوار فى المسرحية .

والحوار فن يستوجب وجود طرفين على الأقل ، والسرد القصصى يكون من طرف واحد غالبًا .

ومن الطبيعى أن يتنوع الحوار بحسب الأغراض والمواقف ، فمنه الحوار الذى يدفع الأحداث ويتصاعد بها إلى قمة الصراع ، وذلك كما تقتضيه أصول الفن المسرحى ، ومنه ما يصور الشخصيات ومستويات تفكيرها ، ونوعه ، فكلام الحكيم غير كلام السوقة ، والشجاع غير الجبان ، والمرأة غير الرجل ، كما يختلف أصحاب كل حرفة عن غيرهم ، ويختلف أيضًا بحسب المتكلم ، فمنهم من يقصد طلب معرفة شىء مجهول حقًا ، ومنهم من يحاور وهو يعلم كل شىء عن موضوع التحاور ، لكنه يقصد إظهار العلم ، أو السخرية من الطرف المقابل ، ومنهم من يحاور من أجل إظهار البراعة والغلبة فى هذا الفن ، ومنهم من يكون حواره هروبًا من حق أو واقع أو غير ذلك من الأغراض .

كما يختلف الحوار بحسب مقدار المخاطب ، فمحاورة الصديق للصديق تختلف عن محاورة الضابط للشرطى أو المذنب ، كما يختلف عن أولئك مخاطبة العبد لخالقه .

والقرآن الكريم حافل بهذا الشكل التعبيرى ، وهو موجود بكثرة فى القصة القرآنية ، وهى تعتمد عليه كما تعتمد على السرد .

ونحن نلحظ فى سورة طه وجود هذا الفن أكثر من وجود السرد ، وقد أشرنا أيضًا إلى أن نسبة السرد فى قصة موسى فى السورة لا يتعدى ثلث آيات الحوار فيها ، فآيات

السرد فيها واحدة وعشرون آية فى الوقت الذى تبلغ فيه آيات الحوار ثلاثًا وستين آية ، وهناك آيات أخرى وردت للتذكير بالنعم التى أولاها الله لموسى وبنى إسرائيل .

وترجع غلبة آيات الحوار على آيات السرد هنا لكثرة مواقف الاختلاف بين الأطراف المتحاورة ، وقد تمثل ذلك فى اختلاف موسى مع فرعون ، وفرعون مع السحرة ، وموسى مع قومه ، ومع هارون ، ومع السامرى .

كما ترجع كثرة الحوار إلى مواقف التعليم والتلقى التى صورها دعاء موسى لربه ، وكلامه تعالى لموسى .

الحوار التعليمى :

ومن مواقف التعليم التى قامت على الحوار – سؤال الله سبحانه لموسى عن عصاه ، وهو سبحانه يراها ويعلم كل شىء عن حقيقتها ، ولكنه أراد سبحانه أن يعلمه أن آيات الله قد تكمن فى أقل شىء واتفهه مما لم يخطر على بال ، وقد أجاب موسى عن منافع العصا بالنسبة إليه ، وقد علمه ربه ضرورة أن يثق به سبحانه ، وأنه سيمكنه وينصره بآياته على عدوه ، والحوار هنا يظلله جلال الله ، وأدب موسى ، وامتثاله لأوامره ، ونستطيع أن نرى ذلك كما يلى :

﴿ما تلك بيمينك يا موسى﴾ ؟ استفهام غير حقيقى غرضه التنبيه والإقرار .

﴿ قال هى عصاى ، أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾ .. إجابة عن منافع العصا ، وليست عن ماهية العصا ، والظاهر من السؤال أنه عن الماهية .

﴿ قال ألقها ياموسى﴾ أمر حقيقى .

﴿فألقاها﴾ امتثال لأمر ربه .

﴿فإذا هى حية تسعى﴾ مفاجأة استولت على مشاعره وأفزعته .

﴿ قال : خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى﴾ تثبيت لفؤاد موسى ، وتدليل على قدرته سبحانه التى ستشمله عند الحاجة .

﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى﴾ : طلب وإخبار عن شىء مستقبلى مترتب على استجابته للطلب وامتثاله للأمر ، وقد أكدت التجربة صدق ما أخبر به عن المستقبل ، فتغير لون يده عند ضمها إلى جناحه ، وعادت إلى ما كانت عليه عندما نزعها .

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ تأكيد على المعجزات التى يطمئن بها قلبه لتكون دليلا على صدق دعوته ، وأنها دعوة من الخالق العظيم ، وهى تؤهله للرسالة .

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أمر وتكليف بالدعوة فهو مؤهل لمواجهة فرعون الطاغى ، ودعوته إلى الحق والإجابة المفهومة ضمنا – هى : سأذهب إليه – امتثالا لأمرك وطاعة لكل ما تأمرنى به .

ولكن موسى الخائف من هول ما يعتقد أنه سيراه يطلب مزيدا من التأييد ، ووفرة من الوسائل المعينة له على أداء هذه المهمة الصعبة ، فدعا ربه بأن يهبه طلاقة اللسان ، وَجَعْلَهُ مقبلا على عمله ، وأن يجعل له المساعد الأمين من أهله ، وهى فى نظره وسائل معينة على أداء مهمته . وقد جاء هذا فى دعاء موسى لربه ، فهو يجيب عن كلامه سبحانه بطلب المزيد من عونه كما يوضحه كلام موسى :

﴿رب اشرح لى صدرى﴾ طلب غرضه الدعاء لإزالة الضيق الشديد ، والخوف من العبء الثقيل الذى يظن أنه لن يقدر عليه لمعرفته بفرعون الطاغى ، ولما بينهما من أمور يظن موسى أنها ستقف فى سبيل دعوته . فهو يطلب من ربه أن يمده بالسعادة والإقبال بروح عالية على عمله ، وأن يزيل عنه الضيق ، وما يظن أنه معوق لدعوته .

﴿ويسر لى أمرى﴾ طلب بتذليل العقبات التى قد تقف فى سبيله ، كالهواجس التى تلوح له عن فرعون وملئه .

﴿واحلل عقدة من لسانى﴾ طلب غرضه الدعاء أيضا بشفائه من اللثغة المكتسبة التى نتجت عن جمرة أحرقت لسانه وهو صبى .

﴿يفقهوا قولى﴾ جواب للطلب ، ومترتب على شفائه من لثغته .

﴿واجعل لى وزيرًا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى﴾ طلب غرضه الدعاء ليمده الله بعون ، أو وسيلة أخرى معينة له فى أداء رسالته ، وهى مؤازرة أخيه هارون ، فهو قوة له فى الرأى ، وإفصاح عن فكره وقلبه .

﴿كى نسبحك كثيرًا . ونذكرك كثيرًا . إنك كنت بنا بصيرا﴾ تعليل وبيان غرض الدعاء وهو الإكثار من عبادة الله بالتسبيح والذكر .

قال : ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ إخبار باستجابة دعوته ، والإنعام عليه بتلبيتها كالنعم الأخرى التى أغدقها عليه سبحانه .

ونلحظ أن الحوار هنا قد استوجبه موقف التعليم والتكليف ، فالمعلم يقى بالعلم والوصايا النافعة ، والمتعلم يطلب مزيدا من الإيضاح والفهم ، والوسائل المعينة على الانتفاع بما يتعلمه .. وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بشىء غير مجرب ، أو مجهول العواقب .

ونلحظ فى هذا الحوار رفق المعلم سبحانه بمن يعلمه ، فهو سبحانه صبور منزّه عن الضجر أو الضيق من بطء المتعلم فى التحصيل ، وهو سبحانه واسع العم والمغفرة لا يبخل على من يعلمه بالفيض الربانى ، ولا يمل سبحانه من كثرة ما يطلبه المتعلم أو يسأله عنه . فقد وهب له كل ما أراده : ﴿قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾[1] .

أما المتعلم فقد تأدب بأدب الحوار ، وهو يعلم درجته ومنزلته ، فلايتخطاها ، فهو المتلقى قليل العلم ، ضحل التجربة ، لذلك لا يعصى لله أمرا ، ولا يعرب عن ثقل المهمة التى سيقوم بها ، كما لا يشك عليه السلام فى آيات الله التى أظهرها له ، ولا تعتريه الوساوس فى النصر المؤكد الذى سيحققه ، إلا أنه يطلب من ربه مزيدا من التأييد بالوسائل التى يراها معينة له .

وجمل التخاطب الحوارية حافلة بالدلالات السامية التى تناسب الرب الأعظم ونبيه الكريم ، فعندما سأله ربه عما فى يمينه أجابه عن العصا وما يحصل منها من منافع ، فلم يخطئه سبحانه ، أو يبين عدم تنبهه لحقيقة سؤاله ، بل أراد سبحانه أن يعلمه بالتجربة العملية . فأمره بإلقائها .

وعندما خاف موسى من الحية المخلوقة من العصا – طمأنه ربه ، وأزال عنه الخوف ، وأسبل عليه فيضًا من رحمته ، وأمره أن يأخذ الحية بلا خوف . فستعود إلى ما كانت عليه عندما يلمسها ﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾[2] وقوله تعالى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾[3] التى يزول عنك الخوف بها فتطمئن .

كما نلحظ فى جمل الدعاء وهى التى يخاطب بها موسى ربه أنها تناسب الطالب المتعلم الراجى ، فهى جمل قصيرة ، واضحة المغزى ، مرتبة حسب أهميتها بالنسبة إليه ، وبحسب نفعها له .

---

(١) سورة طه آية ٣٦ .
(٢) سورة طه آية ٢١ .
(٣) سورة طه آية ٢٣ .

لذلك يدخل كلام موسى فى **باب المناجاة** .

وهى فرع من الحوار . وهى مناجاة لأن الله وحده هو الذى سمعها ، وقد كانت ليلاً ، وفى مكان يخلو من العابرين ، وبين العبد وربه ، ولا ثالث لهما . وهى خالصة لا ريب فيها ، وهى لون من التعبد الخالص ، لأن المسئول وحده هو الله تعالى .

فالحوار فى هذا المقام لازم ومناسب للغرض .

وقد جاءت استجابة الله لدعاء موسى لموقف التعلم والتهيئة ، وبداية لموقف التكليف ، وقد أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون بالقول الطيب ، والتحلى بالصبر والهوادة واللين .

لكن موسى قد صرح – عندما جَدَّ الجد بحقيقة مشاعره ، فهو وأخوه خائفان من فرعون وبطشه ، وقد أكد لهما ربهما عونه وتأييده ، وهو سبحانه سيسمع مايدور بينهم من كلام ويرى ما يحدث من أفعال . قال تعالى :

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[1] .

والجواب هنا متضمن أمرا بتنفيذ ماكلفا به ، ورسم لهما سبحانه الأسلوب النافع لنجاحهما ، وهو الصبر والكلمة الطيبة الهادئة .

وكانت إجابتهما بالإعراب عن خوفهما من فرعون .

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾[2] وقد بث الله الطمأنينة ، وأزال عنهما الخوف ، وكلفهما بالذهاب إلى فرعون لدعوته . وقد وضح لهما سبحانه أسلوب الدعوة .

وقد أبان لهما سبحانه مضمون ما سيبلغان به فرعون وهو قوله تعالى :

﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ، ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾[3] .

وبهذه الآيات ينتهى الموقف ، وإذا نحن أمام منظر أو مشهد آخر ، بعيد عن الوادى المقدس ، وفى مجلس فرعون وبين ملئه ، وفى وضح النهار .

---

(١) سورة طه آيات ٤٢ – ٤٤

(٢) سورة طه آية ٤٥ .

(٣) سورة طه آيات ٤٧ – ٤٨ .

وقد زال الجلال والوقار والتقديس الذى كان محيطا بالموقف ، ويزين الحور ، ويلقى عليه هالة وضاءة من النور الإلهى . وسيطر إنعام الخالق على عبده المختار ، وشكر وتقديس من ذلك العبد الشاكر .

أما المنظر الجديد فهو مخالف تمامًا للموقف أو المنظر السابق . فهو بين فرعون الطاغى المتكبر المعاند ، الخارج عن طاعة الله ، ورسولى الله اللذين يحملان إليه الهداية من رب الأرض والسماء .

فهو **مشهد الدعوة أو تبليغ الرسالة** ، ويحمل كل من فرعون وموسى للآخر ماضيًا ، وأحداثا غير قليلة ، ومع أن سورة طه توقفت عن الإشارة إلى ذلك الماضى – إلا أن سورة الشعراء التى نزلت بعدها قد أوردت شيئًا منه . فلقد جاء على لسان فرعون قوله تعالى :

﴿قال ألم نربِّك فِينَا وليدًا ولبثت فينا مِن عُمُرِكَ سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين﴾[1] .

والآيتان تتضمان ثلاثة أسئلة ذات غرض واحد هو التقرير ، ففرعون وموسى يعرفان أن مضمون الآيتين حاصل ومعروف لديهما ، والغاية البعيدة من وراء أسئلة فرعون هى أن يبين لمن حوله أنَّ موسى قد ارتكب إثمين أو ثلاثة آثام ، الأول خيانته لفرعون ، والثانى قتله المصرى ، والثالث هروبه من القصاص . ومن اقترف مثل هـه الجرائم لا يجوز أن يكون نبيًا ، فهو كذاب فى نظر فرعون .

وقد صبر موسى ، وتمالك نفسه ، وفوت على فرعون فرصة التمادى فى السخرية والاستهزاء وقد أجابه بالحقيقة الصادقة ، ولم ينكر موسى ما وقع فيه من أخطاء فلقد قتل المصرى خطأ ، ومع ذلك فهو نادم على ما فعل ، وفر هاربًا خوفا من لقتل الذى يتوعده به القوم ، وقد تاب إلى ربه فهداه قال تعالى :

﴿قال فَعَلتها إذًا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خِفْتكُم . فوهب لى ربى حكمًا ، وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنّها علىّ أن عبّدتّ بنى إسرائيل﴾[2] .

إن إجابة موسى على أسئلة فرعون الاستفزازية قد غيرت أو فوتت على فرعون غرضه ، لأن قتله للمصرى كان خطأ ، ولم يكن وقتها قريبا من ربه ، كما كان هربه تصرفًا طبيعيا لكل من هو فى حالته .

---

(١) سورة الشعراء آيات ١٨ – ١٩ .

(٢) سورة الشعراء آيات ٢٠ – ٢٢ .

ولم تكن أسئلة فرعون مفاجأة لموسى ، بل كان يتوقعها وينتظر من فرعون وقومه ما هو أكثر ، وقد عبر عن ذلك قبل ذهابه إلى فرعون ، عندما أعرب عن خوفه من القتل انتقامًا منه ، قال تعالى على لسان موسى ﴿ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾[١] .

وقد بث الله فى قلبه الطمأنينة برعايته لهما .. فكل ما سيدور تحت سمعه سبحانه وبصره ، وينرك فرعون أمر الماضى بعد إجابة موسى ، وتبرير موقفه ، وبعد أن تبين له أن إثارة الماضى لا جدوى منها ، فالقوم قد نسوا ، وكثير منهم لم يعد على قيد الحياة وموسى قد ندم وتاب على ما صنعه فى جهالته .

ويلجأ فرعون إلى مجادلة موسى ، ومحاولة توجيه أسئلة تعجيزية له ولأخيه ، وموسى يجيب بما تعلمه من ربه ، ويظهر له الآيات الدالات على صدقة ، والمجادلة تنتهى إلى طريق مسدود ، لأن فرعون يمارى فقط ، ولا يفتح قلبه وعقله لما يسمع أو يرى ، وتنتهى المجادلة فى هذا المشهد بتكذيب الرسولين ، واتهامهما بالشعوذة والسحر ، لذلك سيجمع لهما السحرة فى يوم مشهود ، وسيكون مشهدا مغايرًا للمشهدين السابقين ، وقد ختم الحوار أو المجادلة بين فرعون والرسولين بالآيات التالية :

﴿قال فمن ربكما ياموسى﴾

﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾

﴿قال : فما بال القرون الأولى﴾

﴿قال علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[٢]

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله : فاجعل بيننا وبينك موعدا ، لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى﴾ .

﴿قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضُحى﴾[٣] .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٤ .
(٢) سورة طه آيات ٥٧ – ٥٩ .
(٣) سورة طه آيات ٤٩ – ٥٥ .

وهكذا ينتهى مشهد الدعوة بهذا الحوار الملتهب الحافل باتهامات فرعون ، ومكابرته فى الحق من جهة وصبر موسى وأخيه وقولهما اللين الذى التزما به من جهة أخرى ، وهى مجادلة مثيرة للعقول والقلوب ، تجعل الناس ينتظرون بشغف ما سيقع فى ذلك اليوم الموعود .

وهنا يسدل الستار ليكشف بعد ذلك عن مشهد آخر جديد ، وهو مشهد التحدى الحقيقى والعملى ، ولقد هيأ له الحوار الملتهب بين فرعون والرسولين ، وقد ألهبه فرعون بمجادلته الاستفزازية ، ومعاندته ، ومكابرته فى الحق .

ونلحظ فى الجمل الحوارية فى المشهد السابق بين فرعون والرسولين ظاهرة فريدة ، هى أن الحوار قائم كله على أسئلة يوجهها فرعون إلى موسى وأخيه ، وإجابات من موسى على تلك الأسئلة .

وأكثر أسئلة فرعون تصنف فى الاستفهام غير الحقيقى الذى يقصد به صاحبة غاية أخرى غير طلب العلم عن شىء مجهول حقيقة ، فالآيتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من سورة الشعراء قد خرج الاستفهام فيهما إلى التقرير والتوبيخ ، وقد جاء الاستفهام فى ثلاثة أسئلة ، عن تربية فرعون لموسى منذ ولادته ، والثانى عن معيشته واختلاطه بفرعون وآله ، والثالث عن جريمة القتل التى وقع فيها موسى .

ثم انتقل إلى أسئلة عن الرسالة التى جاءا بها ، وقد تمثل ذلك فى سؤالين كبيرين تصعب الإجابة عنهما ، ولولا تسلح موسى بالعلم الإلهى لما تمكن من الجواب المقنع وأولهما : سؤال عن رب موسى وهارون ، والثانى عن أخبار الأمم البائدة السابقة .

وقد أجاب موسى عن تلك الأسئلة ، وأظهر له البينات التى تؤكد صدقه ، وقد كذّب وأنكر كونها معجزات ، بل ردها إلى تفوقه فى السحر ، وتوعده بسحر أكبر يقهره به .

وقد ختم هذه المشهد بسؤال سادس :

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾

ونلحظ فى سؤاله لونًا من الإنكار والتعجب ولم يجب موسى على هذا السؤال ، لأنه إدعاء وكذب ، ولا يمت إلى حقيقة الرسالة أو المهمة التى جاءا من أجلها .

كما نلحظ فى إجابات موسى التذرع بالعقل ، والالتزام بالحقائق التى وقعت ، والصدق فيها ، وإبداء المبررات المقبولة ، أما إجابته عن الأمور الغيبية فقد أحال العلم بها إلى الله

الذى يتنزه عن النسيان ، أما إجابته عن حقيقة ربهما – فقد أجابه بالتوجيه إلى مظاهر قدرته المتمثلة فى فرعون نفسه ، وهذا ماكان يجب أن يسأل عنه ، لأن السؤال عن الجوهر لا تملك العقول الإجابة عليه والإحاطة به ، فهو سبحانه فوق تصور البشر .

كما نلحظ فى تلك الإجابة أنها تخلو من الخضوع والتذلل لفرعون ، بل يخاطبه من مكان مبلغ الرسالة السماوية ، فهو أمين صادق يبلغ الدعوة ويؤكد صدقه بالمعجزات وهو لا ينافق أو يكذب لأنه جاء بالحق الذى يجعله قويا متماسكًا .

ولا يعنى هذا أن حوار موسى وفرعون قد خرج من جانب موسى إلى التطاول عليه ، أو توجيه اشتائم والبذاءات ، فموسى نبى الله الذى تأدب بالنبوة والعلم ، وموسى لا ينسى رعاية فرعون له وهو صغير ، فهو يدعوه إلى الله ، ويستمع إليه ، ويجيب على أسئلته الاستفزازية ، ويفعل كل ذلك معه بأدب جم ، ويوضح له الحقائق بالقول اللين الذى أمره به ربه .

ونتوقف الآن عند مشهد آخر يختلف عن المشهدين السابقين وهو :

مشهد التحدى :

لقد أسدل الستار على لقاء الفريقين المتباريين فى يوم معلوم وقد أعلن عنه وجمع له من كل إقليم فى مصر ، فلقد جلب فرعون السحرة البارعين من كل مكان يحكمه ، وأراد فرعون أن يكون هذا اليوم مشهودا ، والأمر مختلف عند موسى ، فهو لا يريد ما يبغيه فرعون ، لكنه لا يستطيع التخلى عن المباراة ، كما لا يمكنه رفض التحدى .

ولقد حشر الناس باختلاف طبقاتهم فى هذا اليوم ، ونستطيع أن نتصور ذلك المشهد العظيم ، فالناس من النظارة والسحرة وجنود فرعون وآله قد ازدحم بهم المكان . وقد التف السحرة حول فرعون تارة ليحفزهم ، وليؤكد لهم وعده بالجائزة والتقريب عند نصرهم على موسى . وتارة أخرى يلتف السحرة حول أنفسهم ليتفقوا على خطتهم فى تلك المبارة ، وطريقة تنفيذها ، والنظارة من غير فرعون والسحرة ينظرون إلى السحرة تارة ، وإلى موسى وأخيه تارة أخرى ، وربما يهتفون ويتصايحون ويشجعون السحرة ، تارة ثالثة ، أما موسى وأخوه فنتصور أنهما واقفان وحدهما فى ركن من الساحة ، وينتظران بدء المباراة وهما يتوجسان خيفة من هول الموقف .

هذا هو مشهد التحدى الذى سيكتمل بالحوار بين شخوصه ، وقد بدأ الحوار بإنذار من موسى للسحرة المتحفزين بأدواتهم وخداعهم لقهره ، وقد حذرهم موسى من عاقبة الكذب والافتراء على الله .

﴿قال لهم موسى ويلكم . لا تفتروا على الله كذبا . فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى﴾[1] . ويبدو أن إنذار موسى للسحرة قد ترك أثرًا فى نفوسهم فقد التفوا حول أنفسهم مرى ثانية يتشاورون فى أمرهم سرًا ، ولما رأى ملأ فرعون تشاور السحرة – أرادوا أن يصرفوهم عن أى تأثير قد يقع من موسى ، ونبهوهم إلى حقيقة موسى وأخيه من وجهة نظرهم ، فهم يدَّعون أن الرسولين ساحران يريدان إخراج السحرة وغيرهم من أرض مصر ، كما يريدان إفساد عملهم .

﴿قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى﴾[2] لقد شد فرعون وآله أزر السحرة ، وقابلوا تحذير موسى لهم بعدم الافتراء على الله بتحذيرهم الشديد منه ومن أخيه الساحرين اللذين يبغيان طردهم من وطنهم .

ومع هذه الإثارة فقد تأدب السحرة مع موسى ، واستأذنوه ، وخيروه فى بدء المباراة ، لكن موسى رأى أن يأتى دوره تاليا لدورهم ، فتكون به العاقبة ، ويتم به النصر ، والحوار الذى بينهما يصور ذلك قال تعالى على لسان السحرة :

﴿قالوا : يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى﴾

﴿قال : بل ألقوا﴾[3] .

لقد ترك لهم موسى السبق فى الإلقاء ، فالقوا ما معهم من حبال وعصى مطلية بمعدن الزئبق ، فانعكست عليها أشعة الشمس فى الضحى . فخُيِّلَ للناظرين أنها حيات تتحرك وتنتفض .

ويمكن أن نتصور ما حدث عند ذلك فالجموع المحتشدة قد خُدِعَ بصرها ، وظنوا أنها حيات حقيقية ، وننتظر منهم أن يصيحوا ويهتفون لغرابة ما يرون ، ومن الممكن أيضا أن يسخروا من موسى ، وأن يستحثوه على مواجهة عمل السحرة العظيم فى

---

(١) سورة طه آية ٦١

(٢) سورة طه آيات ٦٣ – ٦٤ .

(٣) سورة طه آيات ٦٥ – ٦٦ .

نظرهم ، وذلك إذا كان قادرًا على المواجهة ، وربما تطاول عليه بعد النظارة بالقول الذى يستخفّ به .

وكل ذلك قد يكون عاملا من العوامل التى أخافت موسى وجعلته مترددًا فى الإقدام على مواجهة السحرة ، ولولا أن نهاه ربه عن الخوف ، وطمأنه بنصره عليهم – لَمَا قام بإظهار البينت التى كمن أكثرها فى عصاه .

إن إلقاء السحرة لحبالهم وعصيهم وتأثير النظارة بما صنعوا جزء من المشهد الكبير ، وهى أفعال أساسية فى المشهد ، لكنها أوقفت الحوار ، قال تعالى :

﴿فإذا حبالهم وعصيهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[1] .

وفِعْل السحرة الخادع لا يبطله إلا فعل أكبر منه ، ولا ينفع معه قول أو حوار ، ولقد أمره الله أن يزيل الخوف عن نفسه ، ويلقى عصاه . وقد أطاع الله فالقاها وصارت حية كبيرة ابتلعت حبال السحرة وعصيهم .

ولنا أن نتصور الأثر الكبير الذى أحدثه تحول العصا إلى حية كبيرة ابتلعت الحبال والعصى ، فالدهشة تسيطر على الناظرين ، وأولهم فرعون الذى تملكه الغضب . ويقع بين الناس اضطراب ، وتعلوا منهم صيحات مختلفة ، وهم بين تعجب ، وخائف ، ومصدق ، ومكذب ، ويتولد عن ذلك كله مفاجأة لا يتوقعها أحد ، هى تسليم السحرة لموسى وربه وسجودهم لله إيمانًا به ، واستغفارًا عن آثامهم ، وقد علموا وتحققوا أن ما جاء به موسى هو الحق .

لقد قابل موسى فعل السحرة بفعل أخر ، والخلاف بين الفعلين أن أحدهما خداع للحواس ، والأخر حقيقة لا يقدر أحد على تكذيبها ، ومن أجل ذلك آمن السحرة ، قال تعالى : ﴿وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سُجَّدًا قالوا : آمنا برب هارون وموسى﴾[2] .

وكان من الممكن أن يسدل الستار على هذا الموقف لولا غضب فرعون وتهديده للسحرة الذين آمنوا برب موسى ، وقد توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم عن خلاف ،

---

(١) سورة طه آيات ٦٦ – ٦٨

(٢) سورة طه آيات ٦٩ – ٧٠ .

وتصليبهم على جذوع النخل ، ولم يعبأ السحرة بذلك الوعيد ، بل أعلنوا عصيانهم له ، وطاعتهم لله .

ونلحظ فى حوار هذا المشهد كثرة الأطراف التى تصاعدت بالأحداث ودفعت بها إلى قمة من قمم الصراع ، فالجمل الحوارية مع قلتها نجدها بناءة إلى حد كبير .

وهى جُمل متنوعة فى دلالاتها وأبنيتها ، فهى بين أمر من فرعون يمتثل له السحرة ، وأمر من الله يطيعه موسى وهارون ، وهى تحذير من موسى للسحرة ذوى العدد الكثير ، وتحذير لهم أيضًا من آل فرعون وجنوده .

ثم يأتى بعد ذلك مستوى آخر للتعبير بالجُمل الحوارية هو المسلك الحضارى الذى اتخذه السحرة عندما تركوا له حرية الاختيار فى البدء ، فهم لم يستخفوا بموسى ، ولم يقللوا من شأنه كما فعل فرعون ، فمخاطبتهم له قائمة على التأدب . وقد قابل موسى هذا التقدير بأفضل منه عندما ترك لهم أسبقية البدء .

وفى السورة الكريمة مواقف حوارية أخرى مثل حوار موسى مع السامرى ، وأخيه هارون ، وبنى إسرائيل ، لكننا نكتفى بما أوردناه فى المشاهد الثلاث التى أوردناها ، وهى تؤكد أن الحوار فن تعبيرى رفيع ، تقوم عليه الأشكال الأدبية كالقصة والمسرحية . وهو يؤدى دورًا وظيفيًا مستقلاً فى كثير من الأحوال . وقد لحظنا كثافته فى سورة طه ، وقد أدى غرضه فى بناء الشخصيات ، ونمو الأحداث والوصول بها إلى قمم الصراع .

والجمل الحوارية متنوعة ، وهى تختلف بحسب المقامات والأحوال التى قيلت فيها ، والشخوص الصادرة منها .

* * *